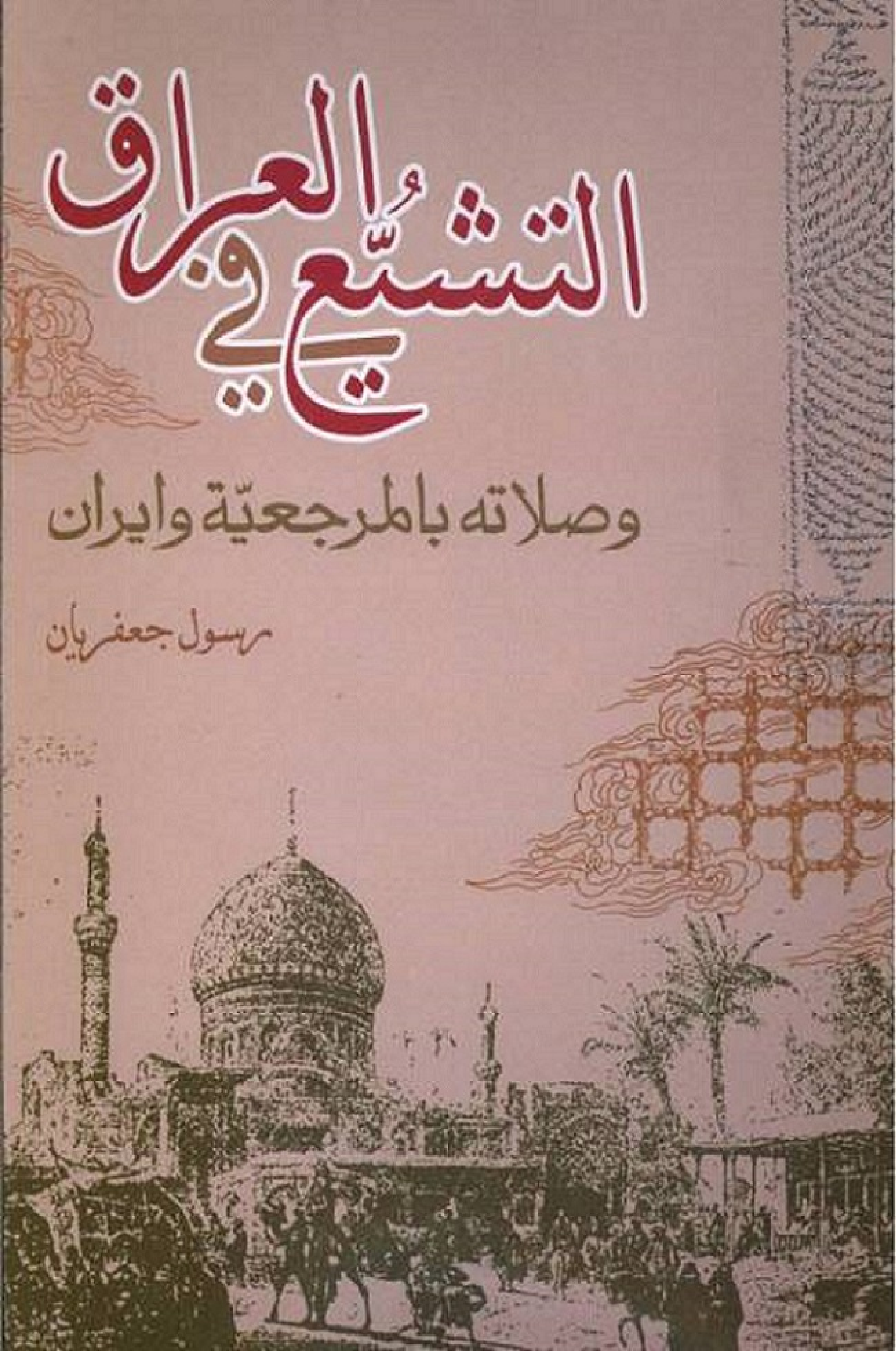

التشيّع في العراق
وصلاته بالمرجعيّة وإيران
رسول جعفريان



فهرس

الفصل الأول

نشأة التشيّع في العراق / ٩

الفصل الثاني

الجغرافية البشرية والسياسية للشيعة في العراق / ٣٧

الفصل الثالث

تنامي حضور الإيرانيين في العراق مطلع القرن العشرين / ٥٥

الفصل الرابع

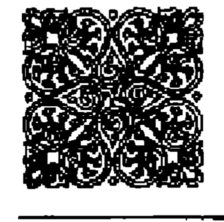
المرجعية الشيعية في العراق وإيران / ٧٣

الفصل الخامس

المرجعية في العراق وتحديات العصر / ١١١



الفصل الأول



نشأة التشيّع في العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سبق ظهور التشيع فى العراق ظهوره في أي نقطة أخرى من العالم الإسلامي، بحيث يمكن القول ان التشيع تبلور أساساً في البيئة الكوفية، ومن ثم انتشر إلى الخارج. وقد انتقل هذا التشيع من الكوفة إلي بغداد أبان القرنين الثاني والثالث الهجري يتمدد علي الأنحاء الاخرى، خصوصاً في بغداد والمناطق الوسطى من العراق في القرن الرابع عقيب ازدياد اهمية مدن الوسط مثل كربلاء والنجف والكاظمية، وبسبب الدعم الذي قدمه البويهيون للمذهب الشيعي حينها.

لقد كان جانب الكرخ محلة شيعية فيما هو اليوم محلٌ لتواجد السنة، بينما كانت الرصافة منطقة مغلقة على السنة وهي اليوم ذات غالبية شيعية. واستمر التشيع بحضوره القوي في العراق، وظل الفكر الشيعي ينتهل من ثدي النجف ومن بعدها الحلة. وشهد التاريخ العراقي في القرن الخامس وما بعده موجات هجرة للطلاب من إيران وحلب وجبل عامل في لبنان بغية الدراسة الدينية في الحواضر العلمية الشيعية في العراق، فكان لهؤلاء المهاجرين أثر في تعزيز الوجود الشيعي في العراق من جهة، وساعد من جهة أخرى على نشر التشيّع إلى المناطق التي انطلقت منها حملات الهجرة.

انّ التشيّع في العراق هو أشدّ صور التشيّع أصالة وتجذراً، ويترامن من حيث

القدم مع التشيّع الذى ظهر فى قم فى القرنين الثالث والرابع، وقد ألقى بظلاله الوارفة على التشيّع في مناطق جبل عامل وحلب وإيران، بقدر ما يتعلق الأمر بالأخيرة فان التشيّع الأصيل الذى تبلورت أركانه ودعائمه فى بغداد والنجف والحلة أثّر فى التشيّع الإيرانى على عدة مراحل:

١ ـ تأثير تشيّع القبيلة الأشعرية التي استوطنت قم من القرن الثانى إلى الثامن.

٢ ـ تأثير تشيّع بغداد (وبعدها النجف) على إيران اعتباراً من القرنين الخامس والسادس إلى القرنين الحادى والثاني عشر.

٣ ـ تأثير المدرسة الحلّية على الإيرانيين فى القرنين السابع والثامن إلى القرنين الثالث والرابع عشر.

٤ ـ تأثير مدرسة النجف وجبل عامل على الوضع الشيعي فى إيران بين القرنين العاشر والسادس عشر.[1]

وكان التوسع الشيعى فى العراق وما زال ينطلق عادة من الوسط باتجاه الجنوب إلى جنوبي البلاد مستوعباً بذلك المدن والقصبات التى تشكل بمجموعها عراق الأمس واليوم.

العراق في الحقبة الصفوية ـ العثمانية

بدءاً من القرن العاشر الهجرى، بات العراق منطقة الحدّ الفاصل بين نفوذ أهم قوتين عظميين سياسيتين فى العالم الإسلامى آنذاك ؛ وهما الدولة العثمانية وهو

---

(١) انظر ما أوردناه حول هذا الموضوع فى كتابنا (تاريخ التشيع فى ايران) ، ص ٤٧٥ وما بعدها .

الطرف الأقوى في المعادلة والدولة الصفوية الطرف الأقل قوة ونفوذاً والتي عجز العثمانيون عن إزاحتها نهائياً من الخارطة السياسية للمشرق الإسلامي، برغم جدية المساعي التي بذلوها من أجل تحقيق هذا الهدف.

ونظراً لتشيع الصفويين، ظلّت عيونهم مشدودة إلى العتبات المقدسة في العراق، نجحوا مرتين في الاستيلاء على بغداد المرة الأولى من ٩١٤ـ٩٤٠هـ والثانية من ١٠٣١ـ ١٠٤٨ هجرية. غير أن هذه المحاولات كانت وقتية ولم يكتب لها الدوام.[1] أما العثمانيون فكانوا يعتبرون أنفسهم أوصياء على التركمان، وبالتالي فان بغداد تدخل في نطاق حقهم الطبيعي في حال ان الدولة العثمانية تبعد عن بغداد آلاف الكيلومترات.

وخلال المقطع التاريخي الممتد من القرن العاشر والحادي عشر إلى القرن الخامس والسادس عشر الميلادي، و بعيد هيمنة الأتراك على الأراضي الايرانية، أصبحت آذربيجان مسرحاً للنزاع العثماني ـ الصفوي، فكان الصفويون لايخفون رغبتهم في السيطرة على بغداد والعتبات المقدسة في العراق فيما يحاول العثمانيون الأمر ذاته، وصار هذا النزاع سبباً في جعل العراق قبلة اهتمام هاتين الدولتين. هذا في وقت لم يكن للعرب حينها أي نفوذ في المنطقة وقد مرت قرون عديدة على آخر حكومة لهم في هذا المكان. لقد أورد حسن العلوي استناداً إلى ما كتبه العزاوي في (*تاريخ العراق بين احتلالين*) ومصادر أخرى، قائمة طويلة بالحروب والمنازعات التي وقعت بين الطرفين المتنافسين في

---

(١) النقاش، شيعه العراق : ٣٣ .

غضون فترات زمنية مختلفة من عهد السلطان مراد إلى عهد نادر شاه وما أسفر عن هذه الحروب من حملات ابادة جماعية.[١]

وهذه الحملات كانت تشنّ في الغالب من قبل الجانب العثماني وبدافع من النزعة التوسعية التي طبعت سياسة السلطان سليم فيما أطلق عليه بالسياسة الشرقية.

ويوما بعد آخر ترسخت دعائم الوجود العثماني في العراق[٢]، وبطبيعة الحال كان الولاة والحكام من السنة. وأصبح الشيعة من ذلك الحين أقلية محكومة يُنظر إليها بعين الريبة على اعتبارها عدواً تقليدياً للحكم العثماني. وبالتالي علّق هذا (العدو) آماله على الجارة إيران!

في هذه الحقبة عُرف التشيع بأنه تيار من الموالاة لإيران، بينما راح ينظر إلى التسنن باعتباره تياراً دينياً أو سياسياً موالياً للدولة العثمانية. مع ذلك، لم تفقد العتبات المقدسة أهميتها كمزارات دينية أو حواضر علمية للشيعة. وبالتأكيد ظل العثمانيون ينظرون إلى الوجود الصفوي نظرة ريبة طوال تلك الفترة وإلى حين زوال الدولة الصفوية، الأمر الذي انعكس سلباً على حجم التواصل والتأثير للتبادل بين إيران والأماكن المقدسة في العراق. إلاّ أن هذه الأماكن تحولت فيما بعد، وتحديداً أيام حكم نادر شاه وضغوطه على علماء الشيعة ومحاربته

---

(١) العلوي : ٥٥-٥٦ .

(٢) كان المفهوم التاريخي السياسي للعراق ينطبق على المناطق الكائنة الى مائة كيلومتر من شمال بغداد باتجاه الجنوب حتى الوصول الى البصرة ، ولكن هذا المفهوم توسع بعد الحرب العالمية الاولى ليشمل كردستان .

للحوزات العلمية في أصفهان وسائر مدن إيران، إلى مراكز لاجتذاب المهاجرين من علماء إيران وطلاب العلوم الدينية فيها. وعادت النجف وكربلاء مركز استقطاب ديني للطلاب والعلماء الإيرانيين، الأمر الذي شجع على هجرة الكثيرين منهم إلى العراق بقصد اكتساب العلم وزيارة المراقد، فكان هذا عنصراً آخر من عناصر التأثير المتبادل على المستوى المذهبي بين كل من العراق وإيران.

ان التحول الذي طرأ أيام الدولة الصفوية على علاقة مراجع الدين الشيعة بالدولة ومكانتهم لديها أسفر تدريجياً عن انحسار الدور العربي في الحوزة العلمية لصالح علماء العجم، وذلك بعد نزوح الحوزة العلمية من العراق إلى إيران وأصفهان على وجه التحديد، بفعل التشجيع والاهتمام الذي أبداه الصفويون لمراجع الدين الشيعة.

والحكاية تبدأ مع بدايات الدولة الصفوية، حيث كانت القيادة الدينية للتشيع بيد العلماء العرب رغم وجود علماء إيرانيين في العراق كالاسترابادیون. واستمر الوضع على هذا المنوال إلى أواسط العهد الصفوي، ولكن ما أن استقر التشيع في ايران واضطربت الأوضاع الأمنية في العراق، لقيت الحوزات العلمية في إيران ازدهاراً ورواجاً واسعاً، وهيمن الإيرانيون على أوضاع الحوزة طلبةً ومراجع وعلماء ومجتهدين. حتى إذا كانت الدولة الصفوية في آخر أيام سلطانها عاد من الصعب أن تعثر على عالم أو مرجع إلا وهو إيراني من الأساس أو متحدر من أصول عربية. واستمرت الأوضاع في الحوزة لصالح الايرانيين طيلة الحكم

النادرى والزندى ومن ثم القاجاري، وكون الشيعة هم الأكثرية في إيران، حتم أن تكون نسبة الطلاب والعلماء الشيعة طاغية على نسب الطوائف الأخرى. ومع ذلك، لم تعدم الحقبة القاجارية وجود علماء عراقيين عرب نذكر منهم: آل بحر العلوم، وآل كاشف الغطاء، وآل راضي، وآل نصّار، وآل المظفر وآخرين.

ولنا أن نتصور إن أصول بعض من هؤلاء تعود في جذورها البعيدة إلى مدن إيرانية، ولكن إذا كان المعيار هو هذا، فينبغي القول بانسلاخ العراق عن هويته العربية، على اعتبار أن عراق ما قبل الإسلام لم يكن فيه من العرب إلا القليل. ومن الواضح إن العراق شهد تأريخياً موجات هجرة متعددة شكلت الهجرة العربية إليه إحدى مظاهرها الجلية.

هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى العراق

عروبة العراق حقيقة أفرزتها موجات الهجرة المتعددة التي قامت بها قبائل الجزيرة العربية إلى أرض السواد ولمرّات متتالية قبل الإسلام وبعده.

بعض هذه الهجرات حصلت في قرون سابقة وبعضها في قرون لاحقة، إلا انه من المؤكد إنها ابتدأت قبل الإسلام حينما كان العراق أو جزء مما يعرف بهذا الاسم اليوم تحت سيطرة الدولة الساسانية بل إن مركز هذه الإمبراطورية كان هناك. مع ذلك فان تواجد القبائل العربية آنذاك مهّد الطريق لظهور دولة عربية هي دولة المناذرة التي اتخذت من الحيرة عاصمة لها وكانت موالية للإمبراطورية الساسانية أو قُل تابعة لنفوذها مع نوع مما نسميه اليوم بالحكم الذاتي.

ولكن مع ظهور الدولة الإسلامية تصاعدت وتيرة الهجرة إلى العراق من

الجزيرة العربية، ومن ثم أصبحت بغداد مركزاً للخلافة العربية الإسلامية لقرون.

في غضون ذلك برزت ظاهرة الأحلاف العشائرية التي تتكون من تحالف والتزامات متقابلة بين عدد من القبائل في مواجهة تحالفات أخرى، ومن ثم تطورت القضية إلى مستوى مجابهة قوى سياسية وحكومات، كما حصل في الاحلاف التي شكلتها بعض القبائل العربية لمواجهة سطوة الأتراك العثمانيين فظهرت تحالفات (المنتفق) و(الزبيد) و (الدليم) و(العبيد) و(الخزعل) و(بني لام) و(البومحمد) و(ربيعة) و(كعب) وغيرهم. وتعود بعض هذه القبائل في نسبها إلى القحطانيين أو العدنانيين، فيما تشكلت لاحقاً أحلاف جديدة بعد طروّ انقسامات على القديمة منها ما أسفر عن ظهور أسماء جديدة. وكان التشيع صفة ملازمة لبعض هذه القبائل منذ القدم، أما البعض الآخر فقد تشيع في فترات متأخرة من القرن الثامن عشر الميلادي وحتى القرن العشرين.

القبائل العراقية والتشيّع

ان انتشار التشيع في جنوب العراق وبين عشائر الجنوب تحديداً يتراوح بين القديم جداً والحديث من ناحية، فان التشيع في (خوزستان) تشيع قديم تاريخياً ويتصل بالحقبة المشعشعية، كما ان تشيع العشائر العربية في الحويزة وناحية الجزائر له جذور تاريخية تتصل ببدايات العصر الصفوي. ومن بين القبائل التي تشيعت في القرن السادس عشر الميلادي بفضل استقرارها بجوار الدولة المشعشعية التي حكمت خوزستان، قبائل بني سلامة وطيّ. فيما كانت هناك عوامل أخرى وراء تشيع قبائل أخرى في جنوب العراق بقيت سنية حتى القرن

التاسع عشر الميلادي. ومن بين تلك العوامل تردّد الإيرانيين على العتبات المقدسة في العراق، وتواجد طلاب العلوم الدينية الذين يقدون من النجف وكربلاء إلى المناطق العشائرية بقصد الدعوة والتبليغ والإرشاد الديني مضافاً إلى تعلق أبناء العشائر الجنوبية بأهل بيت النبي صلوات الله عليهم أجمعين مما يحدوهم إلى زيارة المراقد الدينية والاحتكاك بمركز نشر ثقافة التشيع.[١]

ولا يوجد في الحقيقة ما يؤكد بوضوح متى حصل هذا التحول الكبير، بيد ان إسحاق النقاش وعلى ضوء معلومات مستقاة من كتاب (عنوان المجد) يذهب إلى ان هذا التحول حصل في القرن التاسع عشر، واعتباراً من ذلك الوقت شكل الشيعة الغالبية من سكان العراق.

ويقال أيضا ان هجوم الوهابيين على كربلاء عام ١٢١٦ \ ١٨٠١ جعل علماء الدين العراقيين يهتمون بنشر التشيع بين عشائر الجنوب العراقي لسدّ الطريق لوجه أتباع محمد بن عبد الوهاب القادمين من ناحية نجد ؛ الأمر الذي ساعد على بسط نطاق المذهب الشيعي بين أبناء تلك العشائر.

ان كتاب (*عنوان المجد*) لمؤلفه إبراهيم الحيدري البغدادي (م ١٨٨٢) يعدّ مصدراً مهماً للغاية يؤرخ لتلك المرحلة من تاريخ التشيع في العراق. فقد خصّص فصلاً كاملاً من الكتاب للحديث عن عشائر العراق وتصنيفها إلى عشائر سنية وأخرى شيعية. يقول في هذا الصدد : من بين العشائر التي اعتنقت مذهب (الرافضة) ـ وما أكثرها!- هم ربيعة التي تنقسم إلى عدة بطون ـ يعدّها الكاتب ـ

---

(١) النقاش : ٣٧ .

ويضيف إن ربيعة التي تقطن الجانب الشرقي من بغداد هم رافضة بينما ربيعة التي تقطن الجانب الغربي هم من السنة.

ومن العشائر العراقية الكبرى بنو تميم الذين تحولوا إلي شيعة منذ ستّين عاماً ـ والكلام للبغدادي ـ وذلك بسبب تردد شياطين الرافضة ! وتتوزع منازلهم ما بين نجد إلى البصرة واليمامة صعوداً إلى الكوفة والنجف، وبعدها تفرقوا في الآفاق.

كما إن الخزاعل يعتبرون من العشائر التي تشيعت منذ قرابة مائة وخمسين عاماً والخزاعل تصحيف من خزاعة.[1]

[جدير بالذكر ان قبيلة خزاعة من القبائل المعروفة بميولها الشيعية منذ الصدر الأول للإسلام].

والأمر ذاته ينطبق على عشائر (زبيد) وهي كثيرة، وقد تشيعت منذ قرابة ستين عاماً وذلك بسبب الاحتكاك بالرافضة. ومن العشائر الرافضية أيضاً بنو عمير وهم بطن من تميم وكذلك خزرج الأكبر.

ومنهم أيضاً عشائر شمر طوقة، وهم كثيرون أيضاً وينتسبون إلى شمّر المعروفة لكن الأخيرة تنكر عليهم ذلك. [من المحتمل ان يكون لهذا الإنكار دوافع مذهبية]. ومنها أيضا الدوار والدفافعة، وكذلك عشائر العمارة البو محمد، ولا حصر لهؤلاء، وقد أصبحوا مؤخراً من الرافضة، وجميعهم من قحطان.[2]

ومنهم أيضاً عشائر الهندية بالقرب من البصرة وينتهون إلي قحطان، وبنو لام

---

(١) الحيدري ١١٤

(٢) المصدر نفسه : ١١٥-١١٦

وعددهم كثير جداً ولهم بطون عديدة ويرجعون إلى طي، وكانت منازلهم في المدينة قبل أن يقصدوا العراق.

اما عشائر الديوانية فتشمل آل الأقرع وآل بدير وعفج وجليحة وجبور، والأخيرون كثر، وكانوا سنة ولكنهم هاجروا إلى الديوانية وصاروا رافضة وهم متعصبون في الرفض. ومن عشائر العراق التي اتخذت طريق الرفض منذ أقل من مائة عام عشيرة بني كعب التي تتميز بكثرة البطون وتقطن المحمرة وتنتسب إلى خزاعة.[1]

ويُعدّ بنو أسد من القبائل المشهورة جداً في صدر الإسلام وفي تاريخ العراق، وشهرتهم في التشيع لا تحتاج إلى مزيد بيان، وقد سكنت هذه القبيلة بادئ الأمر حوالي الحلة وواسط إلى الأهواز، وذات يوم، كانت الحلة مركزاً لإمارتهم، وفي زمان المستنجد بالله العباسي طردوا من الحلة وتفرقوا في الأرجاء.[2] وتستوطن هذه القبيلة الآن جنوب العراق في منطقة الجبايش، وكان لها دور بارز في أحداث ثورة العشرين.[3]

استيطان العشائر ورواج التشيّع

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام فيما يرتبط بالتعرف على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل جنوب العراق، وهي إن هجرة هؤلاء من نجد إلى الشمال

---

(١) الحيدري : ١١٧-١١٨

(٢) الكامل في التاريخ ، حوادث السنة الهجرية ٥٥٨ .

(٣) الساعدي : ١٢٨-١٢٩ .

واستيطانهم حول حوض الفرات حوّل أسلوب حياتهم تدريجياً من نمط البدو الرحّل إلى النمط الزراعي المستقر نوعاً ما. ويعتقد النقّاش ان احد أسباب هذا التبدل في النمط الحياتي هو انهيار النظم القبلية التي كانت تتحكم في حياة هؤلاء.

إن الاستيطان الدائمي أوجب من خلال ارتباط هؤلاء بالقبائل الشيعية والمراكز الدينية ـ النجف وكربلاء والحلة ـ التعاطي مع نظم جديدة في الفكر والسلوك تتوجّت باعتناق المذهب الشيعي من قبل هذه العشائر.

ومن العوامل الأخرى التي عملت على ظهور نظام جديد يعتمد على أساس المذهب، هجوم الوهابية على الخزاعل وبقية القبائل. إن هذه الحملات التي انطلقت من نجد نحو العراق وأدّت إلى فرض الحصار على النجف مرتين واستباحة كربلاء عام (١٢١٦هـ\١٨٠١م) استنفرت الكثير من قبائل المنطقة لمواجهة هذه الأعمال العدوانية على قاعدة الدفاع عن المذهب، وعزّز من ذلك الجهود التي بذلها علماء الشيعة لتشجيع القبائل على الانخراط في أحلاف قبلية دفاعاً عن أنفسهم ومذهبهم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، كانت الحلة تعدّ مركزاً لتبادل البضائع بين العشائر، ولمّا كانت العشائر الأخرى تتردد على هذا المركز التجاري لأغراض التسوق، أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحول هذه المدينة إلى مركز لنشر التشيع في العراق.

ويروى ايضاً ان الزابية وهم طائفة صغيرة وفدوا العراق بقصد زيارة العتبات

المقدسة، ولكنهم استقروا فى منطقة الهندية الواقعة بين الحلة وكربلاء بسبب إمكانية الزراعة. وظهر من هذه الطائفة أسر علمية بارزة فى النجف الاشرف منهم آل بنت الحجي وهم أسرة علم وأدب وفقاهة.[١] وكان للأسر العلوية حضور مشهود بين العشائر التي سكنت الحويزة احد المراكز الرئيسية للتشيع فى خوزستان، وما زالت انساب هؤلاء محفوظة. ويشار إلى أنه لا وجود على الإطلاق لعشائر سنية عربية فى خوزستان.[٢]

ونقل الخليلى فى كتابه (هكذا عرفتهم) ان جماعة من أهل شوشستر قطنوا النجف منذ مئات السنين، وما زالوا يعرفون بهذا الاسم واللقب، ولهم حسينية وموكب عزاء خاص بهم وهم يحافظون على هويتهم إلى اليوم.[٣]

وانسحب الأمر نفسه على كربلاء والنجف مع بداية القرن العشرين فتحولت المدينتان إلى مركزين للتسوق التجارى، ما أدى إلي نشر ثقافة المركزين بين أبناء العشائر التى كانت تتردد عليها، خاصة مع كثرة المساحات الصالحة للزراعة فى ضواحى كربلاء الأمر الذى شجع أبناء العشائر إلى الاستيطان فى ضواحى كربلاء وعلى إطرافها، وكان ذلك ذريعة لنشر التشيع.

ومع تأهيل نهر الهندية في المنطقة الفاصلة بين الحلة وكربلاء استوطنت عشائر كثيرة فى المنطقة التى تعرف الآن بسدة الهندية (على أساس رواية

(١) دراسات عن عشائر العراق : ص ١٠٢-١٠٣
(٢) التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان ص ٢٦٢ .
(٣) هكذا عرفتهم : ١٤٥/١ .

مفادها ان امرأة هندية شيعية شيّدت سداً على النهر المذكور) وأصبح هذا منطلقاً لنشر ثقافة التشيع في المنطقة.[١]

والجدير بالملاحظة أيضاً ان التشيع ينتشر جغرافياً وسكانياً في المناطق الحضرية وليس له نفس التأثير والانتشار بين البدو الرحّل وسكان البادية.

وان الثورات والاضطرابات التي شهدها القرن التاسع عشر ضد العثمانيين أو شيوخ العشائر والإقطاعيين بسبب فرض ضرائب وأتاوات باهظة، سحبت علماء الدين إلى مسرح الحياة السياسية والاجتماعية كوساطة لحلّ الأزمة الأمر الذي زاد من نفوذهم على أبناء العشائر.[٢]

يضاف إلى ذلک أن مواطن استقرار عدد كبير من العشائر العراقية صارت سبباً لتشيّعهم بفضل التواصل والاحتكاک مع الزوار الإيرانيين.[٣] ويقال في هذا السياق ان العديد من القبائل النازحة من الحويزة إلى العمارة وغيرها من المناطق الواقعة في طريق كربلاء، إنهم أقوام من الشيعة وفدوا الى زيارة المراقد المقدسة واستوطنوا في المناطق الصالحة للزراعة جنوب العراق أو ارتبطوا مع العشائر التي تقطن هذه المناطق بعلاقات اقتصادية أو اجتماعية.[٤]

وهناک أيضاً شيعة البحرين الذين هاجروا إلى العراق أوائل القرن الثالث عشر واستوطنوا فيه لأغراض الزراعة، ومن هؤلاء آل (أبو طبيخ) من السادات

(١) المصدر نفسه : ٥٥-٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ٦٠ .

(٣) المصدر نفسه ٧٦

(٤) المصدر نفسه : ١٠٤ .

العلويين، حيث هاجر إلى العراق من الإحساء الأخوان سيد مهدى وسيد هادى ووفدوا عام ١٢١٤ على شيخ الخزاعل وأقاموا عنده وتكونت من سلالتهم عشيرة كبيرة.[١]

وفي أواخر القرن التاسع عشر حاولت الدولة العثمانية كبح جماح الدعوة إلى التشيع، وذلك عبر إرسال علماء دين يدعون الى التسنن، إلا ان نزعة السلطان عبد الحميد للتوحيد بين المسلمين أسفرت عن إعطاء الشيعة هامشاً من الحرية في إقامة الطقوس المذهبية ؛ الأمر الذي ساعد على انتشار الفكر الشيعي. ولكن بدايات القرن العشرين شهدت مساعي جمة من قبل العثمانيين للحدّ من النفوذ الشيعي بين القبائل.[٢]

ولعل انتقال الميرزا الشيرازي إلى سامراء وإقامته هناك قد حفزت علماء السنة على تكثيف جهودهم للحد من ظاهرة التشيع، وقد نجحوا إلى حدّ ما في ذلك.

وثمة تقرير حول العشائر التي كانت شيعية مع بداية القرن العشرين أو التي فيها سنة وشيعة، وكما يلي :

عشائر المنتفق، وكانت شيعية ما عدا بني حميد، وعشيرة فداغة في الكاظمية منقسمة بين الشيعة والسنة. وكذلك الأمر حيال بني سعيد من منفع وزوبع من شمّر والذين كانوا يقطنون في سوق الشيوخ والكاظمية... غالبية بني تميم من

---

(١) المصدر نفسه : ١٤٣

(٢) النقاش : ٦٩ .

الشيعة بينما قسم من بني عجيل والعزة بقوا سنّة حتى أوائل القرن العشرين. [البعض من هؤلاء ما زالوا سنة الى يومنا هذا ويقطنون ما بين بعقوبة والخالص].

جبور الفرات شيعة وجبور دجلة سنة، البو محمد هم من الشيعة قاطبة باستثناء بعض الشواذ. عشيرة المحيسن وهم فرع من كعب يسكنون أطراف شط العرب إلى الجنوب من البصرة، كلّهم تقريباً شيعة ما عدا آل بني غنيم.

عشائر ربيعة شيعة على العموم باستثناء فرع الكوام الكبير الذين يتوزعون ما بين الكوت، العمارة والكاظمية. وعلى هذا المنوال انقسمت عشائر شمّر ودليم طائفياً ؛ شمّر جربة الذين قطنوا العراق أواخر القرن الثامن عشر ما بين دجلة والفرات استمروا على المذهب السني، اما شمر طوقة الذين استوطنوا بالقرب من كربلاء أوائل القرن نفسه فقد تشيّعوا جميعاً. أما الدليم فالقسم الأعظم منهم والذين سكنوا شمالي بغداد فما زالوا سنة، بينما تحول آل فتلة منهم إلى المذهب الشيعي بعد أن اختاروا منطقة الهندية مأوى لهم.[1]

وينبغي التوقف كثيراً أمام عبارات : (ما زالوا سنة) و (بقوا على المذهب السني) لما تستبطنه من زعم بأن الجميع كانوا سنة في الأصل، وهو مما لا دليل عليه.

جدير بالذكر ان ربيعة واحدة من أهم القبائل الشيعية التي نزحت من النجف صوب جنوب العراق، وكانت الزعامة فيها لمحمد الأمير وهو شخصية ذات نفوذ كبير. ومن مظاهر تشيع هذه القبيلة هو إقامة المضائف على طول الطريق إلى

(۱) النقاش . ٧٦ .

العتبات المقدسة لتقديم الخدمة للزوار وفي هذا المجال قصص تروى.[١]

التواصل المذهبي بين جنوب ايران وجنوب العراق

لنعد الى الوراء قليلاً كي نتعرف على احد الأسباب الرئيسية لانتشار التشيع في جنوب العراق. في البدء يجب أن ندرك أن التشيع المنتشر بين العشائر العربية في جنوب إيران (خوزستان) لا ربط له بتشيع المناطق المركزية وسط إيران والذي يمتد في جذوره التاريخية إلى ما قبل الدولة الصفوية بقرون.

كما لا ربط لهذا التشيع بالتشيع الصفوي، إذ مع سيطرة إسماعيل شاه الصفوي على مقاليد الحكم في ايران، كان قد مر وقت طويل على استقرار الدولة المشعشعية وحكمها المناطق الواقعة جنوبي العراق وايران، وهو حكم ذو طابع شيعي بلغ في بعض حالاته حد الغلوّ. وكان قادة الدولة المشعشعية من أولاد السيد محمد فلاح (تلميذ ابن فهد الحلي ـ م٨٤١). وقد توفي السيد محمد سنة ٨٧٠، وأقام ابنه محسن دولة قوية من بعده، وواصل الحكم من بعده ابنه فلاح بن محسن الذي حافظ على كيان دولة أبيه في ظلّ الحكم الصفوي. وقد استقطبت هذه الدولة الكثير من العشائر العربية في الحويزة وضواحيها. ولكن الشاه إسماعيل الصفوي هاجم خوزستان واخضع دولة المشعشعية لنفوذه بدعوى غلوّ هؤلاء. ولكن الشيء المؤكد في هذا السياق أن الكثير من قبائل جنوب إيران كانوا شيعة منذ ذلك الحين.

وتعدّ (كعب) من القبائل الشيعية المقتدرة في خوزستان وحكم شيوخها

---

(١) سمامي : ٨٣ .

مقاطعات من خوزستان وقتئذ. وهناك أيضا آل كثير وهم من العشائر المهمة التي قطنت قريباً من دزفول وشوشتر، وبنو طرف الذين استوطنوا حوض ميشان[١] بعد أن كانوا يعيشون حوالي البصرة، ومن ثم هاجروا الى خوزستان بعد ظهور الدولة المشعشعية فيها وسكنوا في أطراف الخفاجية.[٢]

وتدريجياً، انتقلت الكثير من القبائل الشيعية في خوزستان الى العراق حاملين معهم التشيع، وعكس ذلك حصل أيضاً حيث هاجرت الكثير من عشائر المنتفق من جنوب العراق الى خوزستان. وهناك هجرات عربية كثيرة حصلت بين هذه المناطق ساهمت في نشر التشيع فقد هاجر بعض أهالي البحرين والإحساء الى خوزستان ويعرفون اليوم باسم (البحارنة) و(الحساوية). وهناك أيضا بنو سالة وهم فرع من خزاعة سكنوا العمارة أوائل القرن الثالث عشر الهجري، وقد تحالفت هذه القبيلة في الماضي مع المشعشعية وما زال قسم كبير منهم يقطن في خوزستان.[٣]

البصرة مركز رئيس للتشيع في العراق

تاريخياً، دشنّت البصرة ميولها المذهبية في سنة ٣٦ للهجرة فكانت عثمانية الهوى.ولكن تزامناً مع ذلك ظهر فيها توجه شيعي محدود ولكنه قويّ وفاعل.[٤]

وقد خربت البصرة مرات عديدة بفعل الحملات المتعددة عليها من قبل

---

(١) انظر فهرس العشائر العربية في خوزستان من كتاب (التاريخ الجغرافي لعرب خوزستان) ، ص ١٠٨-٢٢٨ . وايضاً القبائل والعشائر العربية في خوزستان ، يوسف بني طرف ، الفصل الاول .

(٢) التاريخ الجغرافي لعرب خوزستان ، ص ١٧٩

(٣) المصدر نفسه : ص ١٦٣

(٤) النصرة لشيعة البصرة ، نزار المنصوري ، ص ٥٢٠ .

الخوارج ومن بعدهم القرامطة. ولم تر وجه العمـران إلا بحـدود القـرنين الثـامن والتاسـع عشـر الميـلاديين. وقد احتلت البصـرة من قبل القـوات العثمانيـة عـام ١٠٨٧ هـ \ ١٦٧٦ م.

وصف الحيدري (ق ١٩) البصرة بقوله : أهالي البـصرة والجنـوب مـن أهـل السنة والجماعة لكن أهل شط العرب من الرافـضة. وأضـاف أن الـرفض صـفة عارضة على اهل البصرة ومنشؤها ـ حسب زعمه ـ من بـلاد العجـم والبحـرين وبعض سكان البادية القاطنين على ضفاف شط العرب، وما عدا هؤلاء فـان كـل بصري أصلي فهو سنّي. [يلاحـظ ان الحيـدري كاتـب سـني متعـصب]. ويعـزو الحيدري تشيع أهالي شط العرب وما يليه من نواحي البصرة إلى عـدم حـضور العلماء السنة في تلك الأوساط. ولا ينـسى التصريح بأن أهالي قرية الزبيـر مـن الـسنة الحنابلة.[1]

غير ان الدراسات الميدانية اللاحقة تفيد أن الزبير نصفها من الـسنة والنـصف الآخر منها شيعة. إن الحضور التاريخي للشيعة في البصرة خاصة بين بنـي عبـد القيس أمر لا غبار عليه.

أمـا عشـائر المنتـفق الـتي نوّهنا آنفاً بكثرتها فهـي تتـوزع علـى منـاطق الاهـوار المحيـطة بـالبـصرة، والكثيـرون منهـم تشيـعـوا على أثـر احتكـاكهم وجوارهم للمشعشعة.

---

(١) الحيدري : ١٦١-١٦٢ .

مركزية العتبات بالنسبة للشيعة (ق ١٨)

الدكتور علي الوردي لم يجانب الصواب حين قدّر بان هيمنة نظام الاجتهاد على الحوزات الشيعية فرض نفسه كواقع، بُعيد حسم النزاع بين الاصوليين والاخباريين. وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ أحد مراجع الدين العرب ـ من ابرز الشخصيات التي وقفت بحزم بوجه التوجه الاخباري، وألّف في هذا السياق كتاب (الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الاخباريين). وله ايضاً كتاب (كشف الغطاء عن عيوب الميرزا محمد الاخباري عدوّ العلماء) والأخير لقي حتفه مع أحد أبنائه في غضون الاضطرابات التي وقعت في الكاظمية بعد صدور الفتوى بقتله عام ١٢٣٢هـ\١٨١٧ م. ومنذ ذلک الحين لم ترفع للإخباريين راية.[1]

ويضيف الوردي في كتابه ان النجف بدأت تتطور اعتباراً من عام ١٢٣٦هـ\١٨٢١ م، ومردّ ذلک إلى تحسن العلاقات بين إيران والعراق وكثرة تردد العلماء والزوار. لقد ارتقت النجف في مكانتها العلمية بحيث أبدى الإيرانيون ميلاً كبيراً للسفر إليها لغرض الدراسة.

وكان تعداد طلبة النجف آنذاک (ق١٣هـ\١٩ م) يربو على عشرة آلاف فيهم الإيرانيون والأتراک والهنود، لكن نسبة الإيرانيين كانت هي الغالبة بالطبع.[2]

ونظراً لانتشار التشيع في جنوبي العراق ووسطه ونزوح الشيعة صوب الشمال

---

(١) الوردي : ٧٨\٣

(٢) المصدر نفسه : ٧٩\٣.

واستيطانهم أحيانا حوالى بغداد، ازدادت النجف قدرة ونفوذاً خاصة مع تحول المركزية الشيعية العلمية من إيران الى العراق خلال الحقبة الافشارية وأوائل العهد القاجاري. وقد ترسخت هذه المكانة للنجف يوماً بعد آخر من منتصف القرن التاسع عشر لتتجلى الى العيان في احداث تحريم التنباك والحركة الدستورية المشروطة.

والملاحظة الجديرة بالعناية هنا ان مراجع الدين الشيعة كانوا في تلك الحقبة خارج نطاق الدولة الايرانية، لذا لم يكونوا خاضعين لنفوذ وسطوة الحكام القاجاريين كما ان الاختلاف المذهبي حال في الوقت ذاته دون تبعية علماء الشيعة في العتبات لسلطة الباب العالي في الآستانة.

وهذه الوضعية اكسبتهم مكانة فريدة من نوعها وحولتهم إلى مركز قوة مهيب الجانب خاصة مع غياب المنافس. وقد تجذرت العلاقة بين مراجع الدين الشيعة وبين أتباعهم مع تطور الفكر الاجتهادي وشيوع ظاهرة التقليد.

عدم نجاح الشيعة في التوسع شمالاً

عندما يجري الحديث عن العتبات المقدسة فالمقصود مدن أربع هي النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ولم يكن الشيعة يسيطرون الا على المدن الثلاث الأولى، أما سامراء الواقعة على الطريق الواصل بين بغداد وتكريت فكانت بأيدي السنّة. وقد استطاع التشيع أن يصل شمالاً الى مدينة بلد الواقعة في منتصف الطريق الى سامراء التي لم يتمكن الشيعة من بسط نفوذهم فيها رغم احتوائها على مرقدي الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام. ولهذا لم تكن سامراء

في وقت من الأوقات ملاذاً آمناً للزوار الشيعة خصوصاً الإيرانيين منهم. وفي هذا السياق تعدّ بلدة (بلد) أهم مدينة مأهولة شيعياً في تلك المنطقة، وجميع سكانها من الشيعة. وهم اليوم (٢٠٠٧ م) محاصرون من قبل السنة.

وخلال إقامته في سامراء، مهّد الميرزا الشيرازي لحضور شيعي في تلك البلدة، وذلك عبر تشييد المدارس والأسواق والمساجد والحمامات والتعامل برفق مع أهل سامراء، ونجح في التقرب اليهم. غير ان علماء السنة ثارت حفيظتهم من ذلك، وجيّشوا الجيوش لأجل الحفاظ على سامراء سنيّة. وكان على رأس هؤلاء محمد سعيد النقشبندي الذي بادر إلى الاستقرار في سامراء وشيّد فيها مدرسة لاستقطاب السنة. واستمر النزاع والتجاذب بين الطرفين فترة من الزمن، الا ان المدينة بقيت تحت سيطرة السنة.[1] وبعد وفاة الميرزا الشيرازي، ذهب النقشبندي إلى الديار المقدسة، ومن هناك قصد اسطنبول للقاء السلطان عبد الحميد الذي حباه بمنحة مالية من خزينة السلطان لغرض بناء وتأسيس مدرسة كبرى للسنة في سامراء. ومنذ ذلك الحين بات الزوار الإيرانيون عرضة للاعتداء من قبل سكان المدينة.[2]

في غضون ذلك، كان هنالك عدد ضئيل من الطلاب في مدرسة الميرزا الشيرازي، وواصلت الحوزة تقديم الدعم المالي لهم رغم تعطّل الدراسة فيها، ولكن بغية تشجيعهم على عدم ترك سامراء. وخلال شهر رمضان وحيث تبقى

---

(١) الوردي ٣\٨٩-٩٢

(٢) الوردي : ٣\٩٤ .

أبواب المراقد فى النجف وكربلاء مفتوحة طوال الليل، كان لفيف من طلبة النجف يقصدون سامراء لأجل إحياء ليالي رمضان فى مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام ويحرصون على إبقاء أبواب المرقد مفتوحة خلال الليل.

وثائق عثمانية تتضمن محاربة التشيع

إن النزاع الصفوى ـ العثماني على المسرح العراقى لم يقتصر على البعد السياسى، وإنما كانت له جذور مذهبية. ومعروف ان العثمانيين كانوا منهمكين بمحاربة التشيع فى الأناضول منذ القرن السادس عشر الميلادى وقبل ان يكونوا بصدد مواجهة نفوذ التشيع فى العراق. والواقع انهم أعلنوا المعركة ضد التشيع من هناك، حتى إذا ما تمكنوا من قمع الميول الشيعية فى تلك المناطق، عادوا ليركزوا جهدهم على الوقوف بوجه المدّ الشيعى فى العراق. بيد أنهم فى هذه المرحلة باتوا منهكي القوى وتراجعت قدرتهم على المناورة سياسياً. ومع انشغالهم بدرء المشاكل والاخطار على الجبهة الاوربية لم يكونوا ميّالين إلى فتح جبهة أخرى للصراع على الجانب الشرقي وخلق مشاكل مع القاجاريين. من هنا أبدوا مرونة نسبية فى التماطي مع الأوضاع فى العراق ؛ الأمر الذى خفف كثيراً من الضغوط على الحوزة فى النجف. وإذا كانت النجف لم تستثمر الأوضاع لصالح نشر التشيع أكثر، فمردّ ذلك إلى تقصير منها في اداء وظيفتها.

ثمة وثائق في أرشيف الدولة العثمانية تشير إلى وجود تحذيرات مكررة من خطر انتشار المدّ الشيعي فى العراق أواخر العقد الأخير من القرن الثامن عشر، أي في فترة حكم السلطان عبد الحميد لثاني. والواقع ان العثمانيين كانوا يعدّون

التشيع في إيران حائلاً دون وصول الأتراك إلى الموارد البشرية السنية في الشرق الأقصى.

في هذه الفترة، فاق العلماء الشيعة في العراق نظراءهم السنة في العدد وفي مساحة الولاء والقدرة على التأثير في أوساط المدن والريف والبادية. وفي تقرير مرفوع إلى الآستانة من قبل القنصل العثماني في آذربيجان الإيرانية إشارة إلى ان الشيعة يشكلون نسبة ٤٠٪ من سكان العراق وقد حملت تلك المذكرة توصية باستعمال اللين في معالجة الموقف واقترح إرسال مدرسين سنة من اسطنبول إلى العراق ومحاولة التأثير على الأوضاع فيه من خلال المدارس وأساليب التربية والتعليم وتفادي اللجوء إلى سيف السلطان سليم.[١]

وفي مذكرة أخرى بهذا الصدد ورد التأكيد على استقلالية علماء الشيعة في العتبات المقدسة، وجاء في المذكرة ان المجتهدين الشيعة لا يتطلعون إلى مناصب رسمية ولا يخشون بالتالي من العزل أو الإقالة، ومن ثم فأن السيطرة عليهم مهمة صعبة خاصة مع ما يتمتعون به من نفوذ لدى عامة الناس، حيث يرون فيهم نواباً للإمام ما يمنحهم مكانة عظيمة تفوق مكانة السلطان آلاف المرات... إنهم بكلمة واحدة قادرون بمحض الإشارة على تحريض الناس ضد السلطان وفي غضون أربع وعشرين ساعة فقط !

في تلك الأثناء، كانت الحكومات الإيرانية تتمتع بنفوذ كبير على الأوضاع في العراق نظراً لقوة التواجد الإيراني في العراق على صعيد الحوزة أو

(١) دربنكيل : ١٨-١٩ .

المجتمع عموماً.

وهذا هو بالضبط ما كان يشكّل مصدر قلق كبير بالنسبة للعثمانيين، ما دعاهم إلى إتباع سياسة خاصة تعتمد ضبط أعداد الزائرين والتضييق على المجتهدين الشيعة والدعوة للمذهب السني والتظاهر باحترام العتبات المقدسة كمؤشر على احترام الدولة العثمانية لعقائد الشيعة كل ذلک من اجل الحدّ من النفوذ الإيراني على الساحة العراقية.[١]

ان حادثة تحريم التنباک عام ١٣٠٩ هـ\١٨٩٢ م لم تزلزل العرش الإيراني فحسب، بل أثارت الرعب في قلوب السلاطين الأتراک أيضاً. وبعد تلک الواقعة كتب سليمان حسين باشا أحد الأتراک المنفيين إلى بغداد شارحاً أبعاد الحدث ودور الميرزا حسن الشيرازي فيه، قال نظراً لأن المجتهدين الشيعة يعدّون جميع الحكومات غاصبة، فلابد من العمل على الحدّ من نفوذهم من قبل الدولة، فهؤلاء عقبة كأداء بوجه الترقي والتقدم، وهم بالتالي خطر جسيم... وتجدر الإشارة إلى ما في بعض التقارير من ان العتبات تحولت عملياً إلى مدن ايرانية بفعل ما يتدفق عليها من أموال إيرانية.[٢] ومن شأن هذه الأموال أن تجعل من الشيعة أغنياء في مقابل السنة الفقراء، الأمر الذي يتجلى في أوضح صورة في الحوزات العلمية الدينية حيث أن الشيعية منها تكاد تكون مكتفية ذاتياً في مقابل عوز كبير تعاني منه الحوزات السنية.[٣]

وهذا الأمر كان سبباً في ازدهار التجارة بين الشيعة وظهور جيل من التجار

---

(١) دربنكول ٢٠ – ٢١

(٢) المصدر نفسه : ٢٢-٢٣

(٣) المصدر نفسه : ٢٦ .

الشيعة في بغداد والأماكن المقدسة.

مع ذلك، فان الدولة العثمانية أبدت اهتماماً خاصاً بعمارة العتبات المقدسة على اعتبار ان الموضوع يرتبط بحيثية الدولة حسب ما نوّهت به تقارير مختلفة صادرة من وإلى الآستانة بهذا الخصوص.[1] وهذا التوجه ظهر جلياً بعد إحساس الدولة العثمانية بالحاجة إلى دعم علماء الشيعة في توجّه السلطان لتوحيد المسلمين قبال الخطر المتمثّل بالتحديات الأوروبية.

والحقيقة، ان سياسة العثمانيين حيال العتبات المقدسة حملت في هذه الفترة الكثير من التناقضات فرضها تقاطع المصالح، فهي من ناحية تخشى من توسع المدّ الشيعي، ومن ناحية أخرى تحتاج إلى علماء الشيعة وفتاواهم الحاثّة على وحدة المسلمين.[2]

وفي واحدة من المفارقات الغريبة، لابدّ من الإشارة هنا إلى إن الكثير من الإيرانيين تمكنوا من الهجرة من إيران إلى اسطنبول، إما مباشرة أو عن طريق المرور بالعراق. وقد ازداد عدد هؤلاء المهاجرين مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى درجة أنهم تمكنوا من إقامة المراسيم المذهبية الشيعية في عاصمة الدولة العثمانية، وببهاء لم يسبق له مثيل.[3]

---

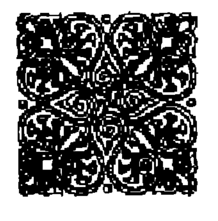
(١) المصدر نفسه ٢٨-٢٩

(٢) النقاش ١٠٦

(٣) دربنكيل : ٣٠ .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني



الجغرافية البشرية والسياسية للشيعة في العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

طبقاً للإحصائيات المنشورة بشأن التوزيع الديموغرافي المذهبي في العراق، فإن العرب الشيعة يشكلون الغالبية من أبناء المجتمع العراقي. ويتحدث الكاتب حنّا بطاطو بهذا الصدد مقسماً الجغرافية الدينية والمذهبية في العراق إلى مناطق ثلاث

المنطقة الأولى : وهي أكثر المناطق المأهولة بالسكان ويقطنها الشيعة، وتضمّ المحافظات الواقعة إلى الجنوب من بغداد وهي من الناحية العرقية تعدّ منطقة عربية، باستثناء اقلية إيرانية متواجدة في البصرة والنجف وكربلاء. ولا يشكل الشيعة ١٠٠٪ من سكانها لوجود مناطق صغيرة تتواجد فيها أقلية سنية، كما إن مدينة الزبير والقسم الواقع جنوب غرب البصرة مأهول بالسنة.

المنطقة الثانية : وادي الفرات إلى الشمال من بغداد، يقطنه العرب، ووادي دجلة الممتد من بغداد إلى الموصل ساكنيه من السنة، مع أقليات شيعية في بلد والدجيل وسامراء. وفي أطراف هذه المنطقة والمنطقة الثالثة ـ الآتي شرحها ـ ينتشر التركمان على امتداد طريق البريد القديم

الواصل بين بغداد والموصل واسطنبول.[١]

ويتوزع التركمان الشيعة على مدينة تلعفر ـ قرب الموصل ـ وداقوق وطوزخرماتو وقرة تبه، فيما يتواجد الاكراد السنة في التون كوبري وكركوك وكفري، وجزء من اهالي كركوك من الشيعة التركمان.

المنطقة الثالثة : وهي تشمل الهلال الجبلي الكردي، وهي منطقة خصبة ترويها امطار شمال العراق وشماله الشرقي. وهي منطقة سنية أيضاً، مع فارق أن هذه المناطق مأهولة منذ العهد الملكي بأتباع الأديان الباطنية والصوفية. وفي

(١) التركمان وأغلبهم شيعة عانوا الكثير من قمع السلطة البعثية ويقال ان تشيّعهم يعود إلى زمان اشاه روح حفيد تيمور ، أيام سيطرة دولة الخروف الأسود بزعامة جهانشاه على بغداد وضواحيها الشمالية (١٤٤٧ م) وتوسّعها باتجاه الجنوب العراقي . بعد ذلك ساهم الشاه اسماعيل في نشر التشيع بين صفوف التركمان . حيث شجع الكثير من الدعاة إلى استيطان تلك المناطق واشاعة المذهب الشيعي فيها وظهرت فرق كثيرة بين الشيعة التركمان مثل (العلوية والبكتاشية والصارلية) وقد هاجر بعض الشيعة التركمان إلى النجف وكربلاء بعد احتلال العراق من قبل الانكليز ، مما أدى إلى إقامة جسور تواصل بين علماء الشيعة ومقر تواجد التركمان في كركوك وضواحيها ولقد حاول صدام اجتذاب التركمان ، فمنحهم حق تشكيل الجمعيات واصدار المطبوعات ، ولكن لم تمض فترة طويلة حتى انقلب عليهم بعد أن رأى انه لم ينجح في كسب رضاهم . فأمر باغلاق المدارس وتسييب المعلمين إلى مناطق بعيدة عن محل سكناهم في كركوك . كما قام بطرد الاكراد والتركمان من شركات النفط ونفيهم إلى جنوب العراق ، الأمر الذي أوجد نوعاً من التحالف بين الكرد والتركمان . وبعد الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م داهم الجيش مناطق التركمان ما اضطر بعض التركمان إلى الهرب صوب الحدود التركية خوفاً من انتقام البعثيين وفي وقت من الأوقات سلّط البعثيون جام غضبهم على الشيعة التركمان واتهموهم بالانتماء لحزب الدعوة الإسلامية واعدموا الكثير منهم والى الآن يحتفظ التركمان السنة والشيعة بعلاقات طبيعية تجمع الفريقين ، وهذا الأمر ينطبق على التركمان السنة في كركوك والشيعة في منطقة (تسعين) وعلى جميع التركمان المنتشرين من خانقين إلى تلعفر التي يتمركز فيها الشيعة ويحيط بها السنة ، وهناك اعداد غفيرة من التركمان الشيعة في اطراف الموصل وداقوق وطوزخرماتو وقرة تبة وخانقين ومندلي ولتفاصيل أكثر في هذا الصدد راجع الموقع الالكتروني : (www.alturkmani.com)

هذا ، ومع كتابة هذه الأوراق طالت الفتنة الطائفية التركمان عندما بادر التركمان السنة خارج تلعفر إلى قتل أقرانهم الشيعة ضمن حملات ابادة وحشية .

القرن التاسع عشر حصل نزاع بين أبناء هذه المنطقة وبين أهالي بغداد من أتباع الشيخ عبد القادر الكيلاني. وعلي أي حال، فان المتصوفة العرب لم يكن لهم من الفعالية والنشاط ما لاقرانهم الكرد إبان العهد الملكي، ما عدا سامراء، ولكن هذا النوع من النشاط للصوفية العرب تنامى فيما بعد العهد الملكي.

هذه المناطق الدينية الثلاث تتداخل فيما بينها في العاصمة بغداد. ففي محلة (عقد الأكراد) في بغداد يتواجد الكرد الشيعة الذين يصطلح عليهم محلياً باسم الأكراد الفيلية.[1] وفي جميع المناطق الثلاث المشار إليها تعثر على مواطنين غير مسلمين يشكلون بمجموعهم نسبة ٣٪ من مجموع نفوس العراق، وكانت نسبتهم ضعف ذلك قبل ان يغادر اليهود العراق إلى فلسطين المحتلة منذ العالم ١٩٤٧ [2]

ويتعرض بطاطو لبحث جذور التشيع في المنطقة التي يشكّل الشيعة فيها الآن الغالبية المطلقة فيقول ان ابا بكر الخوارزمي (م٩٩٣ أو ١٠٠٢ م) وضمن أشارته إلى مرقدي الإمام علي والإمام الحسين عليهما السلام يعتبر التشيّع شأناً عراقياً.

---

(١) بطاطو يقال ان خمسين بالمائة من سكان ديالى هم من الشيعة عرباً كانوا ام كرداً ام تركمان علماً ان الاكراد الفيلية كلهم من الشيعة وكانوا يتمركزون في محافظة ديالي، ولكنهم تبعثروا على المحافظات المجاورة ومنها بغداد جراء السياسات التعسفية بحقهم وهؤلاء الاكراد هم فروع من العشائر الكردية الموجودة في ايلام وكرمانشاه ، ولا تربطهم باكراد شمال العراق صلة تذكر وهم يرفضون الانتماء اليهم سياسياً ، والعدد التقريبي لهم حوالي مليون نسمه والكثير منهم ايام نظام صدام وخوفاً من غضب السلطة ادعى العروبة أو أخفى تشيعه .

(٢) بطاطو : ٥٧١١-٥٩ .

ويقول ان ما كان يطلق عليه حينها اسم (العراق) باستثناء بغداد والمناطق الواقعة إلي الشمال منها هو الآن موطن الشيعة في هذا البلد. وقلب هذه المنطقة هو حوض الفرات الأوسط. ولقد ساهمت دولة آل بويه ـ وهم أسرة فارسية شيعية ـ علوّ شأن آل مزيد من بني أسد وهم شيعة يقطنون البصرة. ولا ننسى دور الأسرة المشعشعية التي سيطرت على الشريط الحدودي من تخوم بغداد إلى الخليج أواسط القرن الخامس عشر الميلادي. (وكان الجنوب العراقي في أيام حكمهم شيعياً بمجمله ما عدا البصرة طبعاً). كما ان التغييرات التي طرأت على مسار نهري دجلة والفرات غيّرت شكل المنطقة، فاندثرت مدن مثل واسط والمدائن، وظهرت أخرى مثل العمارة والناصرية. وهناك عشائر قديمة انقرضت أو أفل نجمها، فيما برزت عشائر جديدة قدمت من شبه جزيرة العرب واستقرت في الأراضي السهلية لدجلة والفرات. هذه التحولات الديموغرافية أدت إلي خلق أوضاع جديدة كان أبرزها اتشاح المنطقة بوشاح التشيع.

ويضيف بطاطو عوامل أخرى يرى أنها ساهمت في تنامي المدّ الشيعي في هذه المنطقة، من بينها

ـ وجود علماء الشيعة في النجف وكربلاء.

ـ مركزية النجف والحلة بالنسبة للتشيع.

ـ العلاقات التجارية والمذهبية بين شيعة العراق والشيعة في بلاد فارس.

أضف إلى ذلك، ان الكثير من العشائر التي تستوطن المنطقة لا تبدي مقاومة تذكر حيال ما تجده من آداب وتقاليد وشعائر دينية. ولهذا نجد أن بعض هذه

العشائر انقسمت إلى شطرين : شطر سني وآخر شيعي. ومن هذه العشائر عشيرة شمّر التي تنقسم إلى قسمين شمّر جربة وهم سنة، وشمّر طوقة وهم شيعة.

كما أن آل فتلة الذين شكّلوا عماد ثورة العشرين هم فرع شيعي من قبيلة الدليم السنية ويقطنون الفرات الأوسط. نفس الأمر ينسحب على الجبور، فالذين يقطنون منهم أطراف الحلة ونهر الفرات من الشيعة، أما الذين يتواجدون في منطقة الشرقاط جنوب غرب الموصل فهم جبور سنّة.

إن تردد رجال الدين على هذه المناطق أسهم بلا شك في بسط مساحة التشيع.

ويواصل بطاطو تحليل أسباب تنامي التشيع في العراق في ظلّ نظام الحكم العثماني المناوئ أصلاً للشيعة، فيذكّر بحقيقة ان أوامر السلطة العثمانية حينها لم تكن مؤثرة إلا في حدود المدن الكبيرة التي يتواجد فيها مندوبون عن الدولة العثمانية، أما المدن الصغيرة والقرى والأرياف فتبقى بعيدة عن التأثر بهذه المقررات والقوانين. ناهيك عن ان الدولة العثمانية لم تكن تمارس ضغطاً كبيرا على الشيعة أو تمنعهم من أداء طقوسهم الدينية والمذهبية.[١]

عدد الشيعة حسب إحصاء عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م

عام ١٩٢٠ اجرى في العراق إحصاء سكاني عام شمل جميع مناطق العراق

---

(١) بطاطو : ٦١١١ .

باستثناء السليمانية التي لم تكن تابعيتها للعراق محسومة حتى ذلك الحين. وقد جاءت نتائج الإحصاء على النحو الآتي بحسب المذكرة التي رفعتها القنصلية الإيرانية في البصرة حينها، وجاء فيها ما يلي

المحافظة	التعداد الكلي	عدد الشيعة
بغداد ـ المركز	٢٥٠٠٠٠	٥٤٠٠٠
بغداد ـ المحافظة	٣٣٠٧٩٠	٦٨٢١٥
الكوت	١٠٧٧٩٧	٩٨٨١٢
الدليم	٢٥٠٠٠٠	٢٠٠
ديالى	١٠٤٠٣٦	٤٦٠٩٧
البصرة	١٦٥٦٠٠	١٣٠٠٠٠
الحلة	١٧٣٠٠٠	١٥٥٨٩٧
الديوانية	٢٠٤٥٠٠	١٩٢٣٠٠
المنتفك	٣٢٠٠٠٠	٣٠٦٠٠٠
العمارة	٣٠٠٠٠٠	٢٨٤٧٠٠
الموصل	٣٥٠٣٧٨	١٧١٨٠
كركوك	٩٢٠٠٠	٥٠٠٠
اربيل	١٠٦٠٠٠	ـــــــ
كربلاء	١٩٠٠٠٠	١٨٩٠٠٠

المجموع الكلي = ٢٨٤٩٢٨٢، الشيعة[١] = ١٠٠٥٠٠٠.

(١) كوهستاني نجاد : ٤٢٧-٤٣٠ .

وطبقاً لما أورده حسن العلوي يمكن اعتماد النسب التالية على ضوء نتائج التعداد السكاني آنف الذكر والذي نظمه الانجليز لجميع مناطق العراق ما عدا السليمانية.

العرب الشيعة ٥٥٪

العرب السنة : ١٩٪

الكرد السنة : ١٨٪

اليهود والمسيح وباقي الطوائف : ٨٪

لكن هذه النسبة ارتفعت إلى ٥٦٪ في إحصاء عام ١٩٣٢، حيث بلغ عدد الشيعة ١٦١٢٥٣٣ نسمة من مجموع ٢٨٥٧٠٧٧ نسمة يشكلون كل سكان العراق.[١]

إحصاء عام ١٩٤٧

وقد أفرز هذا الإحصاء الرسمي الذي أجرته الحكومة العراقية، عام ٤٧ النتائج التالية :[٢]

الطوائف	التعداد	النسبة
العرب الشيعة	٢٣٤٤٠٠٠	٥١\٤
العرب السنة	٩٠٠٠٠٠	١٩\٧
الكرد السنة	٨٤٠٠٠٠	١٨\٤

(١) النقاش ٣٢ .

(٢) بطاطو : ٦٠١١ .

الطوائف	التعداد	النسبة
الشيعة الايرانيون	٥٢٠٠٠	١\٢
التركمان الشيعة	٤٢٠٠٠	٠\٩
الكرد الشيعة	٣٠٠٠٠	٠\٦
المسيحيون	١٤٩٠٠٠	٣
اليهود	١١٧٠٠٠	٢\٦
اليزيدية والشبك	٣٣٠٠٠	٠\٨
الصابئة	٧٠٠٠	٠\٢

نستنتج من الأرقام والبيانات أعلاه أن نسبة الشيعة ـ عرباً وكرداً وتركمان ـ تبلغ ٥٤\١١٪ من مجموع سكان العراق ؛ ما حدا بالكاتب حسن العلوي إلى القول ان تجاهل شيعة العراق العرب يفضي إلى تراجع نسبة العرب في هذا البلد إلى اقل من ١٨٪.[١]

ويتطرق العلوي إلى اتجاه قومي عربي سعى منذ عام ١٩٢٠ لإخراج شيعة العراق من دائرة العروبة. والمفارقة ان عدد الإيرانيين المقيمين في العراق ٥٢٠٠٠ نسمة، في حال ان الكاظمية وحدها بلغ عدد نفوسها عام ٤٧ م (١١٥\٧٦٠) نسمة، وبالتالي فإن مصادرة الوجود الشيعي في العراق سوف تنعكس نقاطه سلباً على توجهات القوميين العرب !

ذات يوم، سُئل السفير العراقي في الصين عيسى سلمان التكريتي حول الأكثرية في العراق ؛ هل هي للسنة أم للشيعة ؟ فأجاب سلمان بأن العجم في

---

(١) العلوي : ٤٥-٤٦.

العراق أكثر من العرب، ولكن إذا جمع العرب مع الكرد، فان مجموع هاتين الفئتين يتجاوز عدد العجم. فتصدى احد الحاضرين وهو فلسطيني لسؤال السيد السفير إن كان شيعة العراق من العجم، فأجاب : نعم ![1]

ان خطورة هذا التوجه حيال عروبة العراقي دعا بعض القوميين العرب مؤخراً للزعم بأن شيعة العراق نوعان ؛ فمنهم العربي ومنهم غير ذلك !

الجغرافية السياسية لشيعة العراق

بعد تعرّضه للإحصائيات ذات الصلة بالوجود الشيعي في العراق، تناول حنّا بطاطو طبيعة الصلة بين النظام الطائفي والسلطة السياسية وموضوع مالكية الأرض وسهم الطوائف فيها. ويتكلّم بطاطو حول العقد الثاني من القرن العشرين قائلاً

كان هناك ارتباط وثيق بين الولاء الطائفي والنظام الاجتماعي، على نحو أن أغلبية الملاك المتنفذين في البصرة هم من السنة ما عدا شخصاً واحداً، في حال ان اغلب المزارعين وأصحاب البساتين من الشيعة. والشخص الشيعي الوحيد الذي قلنا انه من الملاك هو شيخ المحمرة وهو صاحب أراض شاسعة.

ان وجوه وأعيان المجتمع البصري كانوا من السنة أيضاً، أما ساكنوها فغالبيتهم شيعة. مع ملاحظة ان رجال الدين الشيعة كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية جيدة.

---

(١) العلوي : ٤٦ .

وفي المدن الجنوبية الأخرى ـ عدا النجف وكربلاء ـ مثّل السنة الأقلية المتفوقة اجتماعياً، واغلبهم من التجار والأثرياء وأصحاب الأراضي والمقاطعات. وكان هؤلاء يهيمنون على مقاليد التجارة في الأسواق الشيعية الصغيرة، كما إن الأسواق الصحراوية تدار من قبل التجار السنة القادمين من منطقة نجد في الجزيرة العربية.

في لواء المنتفق، كان المزارعون قاطبة من الشيعة، في حال ان الملاك اكثرهم من أبناء عشيرة السعدون السنية. وهكذا الوضع في الحلة. هزاع من محيمد شيخ المعامرة من فروع زبيد، مالك سنّي وأكثر مزارعيه من الشيعة. أما في بغداد حيث يتعادل التركيب السكاني بين السنة والشيعة من ناحية العدد، فنجد ان الأسر المتسلطة سنية في الغالب مع وجود استثناءات.

وفي الجيش يحتكر السنة كل المراتب العسكرية العليا، ما عدا الجنود والمراتب وبعض الضباط الصغار فغالبيتهم المطلقة من عشائر الجنوب.[1]

ان هيمنة السنة على المدن يعود تاريخياً إلى زمن الدولة العثمانية، اما هيمنتهم على الريف، فمردّه إلى سيطرة أهل الإبل على أهل الزراعة !

وينوّه بطاطو إلى ان الاوضاع الاجتماعية في جنوب العراق شهدت بعض التحسن في الأربعينيات، ويستدلّ على ذلك بأن السنة بدأوا يزوجون بناتهم

---

(١) بطاطو ٦٦/١ أبرز الأسر البغدادية كانت سنية مثل آل الكيلاني والجميل والسويدي، والحيدري، والسنوي، والطبقجلي، والشاوي، والشواف، والداود والزهاوي، والجادرجي، والخضيري، والباججي، والدفتري .

للشيعة، وما كانوا يقدمون على ذلک من قبل.[١]

حتى عام ١٩٤٧ م لم تتقلد ولا شخصية شيعية منصب رئاسة الوزراء في حال ان الأعوام الواقعة بين ١٩٤٧-١٩٥٨ شهدت أربع حكومات يرأسها شيعة.[٢] مع ذلک لم يكن للشيعة حضور فاعل في مراكز صنع القرار، بيد أن اتساع نفوذهم الاقتصادي مهّد لإعطائهم دوراً سياسياً اكبر، وهذا الوضع تبلور أكثر في الخمسينيات من هذا القرن، بحيث أن الملاک الكبار للأرض في العراق كان عددهم سبعة عام ١٩٥٨ م ستة منهم شيعة، ومن بين ٤٩ أسرة عراقية مالكة للأرض كانت ثمة (٢٣) أسرة شيعية عربية و (١٤) أسرة سنية عربية، (١١) أسرة كردية وأسرة يهودية واحدة.

وحتى ذلک الوقت كان الشيعة يتملكون (٣/٤٤) من الأراضي العراقية المسجلة كعقار. وبعد تسفير اليهود عام ١٩٤٩، سيطر الشيعة على مقاليد الأمور على الصعيد التجاري في بغداد، وذلک في حقبة زمنية عدّها المؤرخون ربيع الشيعة.[٣] وبالطبع فإن صعوبة تدرج الشيعة في المناصب الحكومية العليا جعلهم يتوجهون إلى المضمار التجاري. وعام ١٩٥١ حين إجازت الحكومة العراقية

---

(١) إرث الزوجة في الفقه الشيعي أكثر منه في الفقه السني ، وهذا أحد الأسباب وراء إقدام السنة على تزويج بناتهم من الشيعة ، خصوصاً مع اوائل القرن العشرين . (انظر : شمراني ١٢٦-١٢٧)

(٢) وهم: السيد محمد الصدر وعبدالوهاب المرجاني وصالح جبر وفاضل الجمالي، وبعد هزيمة صدام في الكويت كلّف اثنين من الشخصيات الشيعية لتولي منصب رئاسة الوزراء ، الأول سعدون حمادي والثاني محمد حمزة الزبيدي

(٣) انظر : شمراني ١٢٧ . على الخصوص بعد تصدّي صالح جبر ومحمد الصدر لمنصب رئاسة الوزراء عام ١٩٤٧-١٩٤٨ .

لليهود ان يغادروا البلد ارتفع عدد المهاجرين إلى اكثر من مائة ألف مما ترك فراغاً ملحوظاً في السوق التجارية ما لبث أن شغله التجار الشيعة والمسيحيون الذين وجدوا في ذلك فرصة مناسبة ومجالاً جديداً للقيام بأنشطة وفعاليات تخدم الشرائح الاجتماعية التي ينتمون إليها.[1]

ولابدّ من الاشارة هنا ان حصول الشيعة على مركز الصدارة التجاري لم يلغ حقيقة أنهم كانوا الأفقر اقتصادياً في الإطار العام، خاصة أولئك الذين هاجروا من العمارة إلى بغداد واستوطنوا المناطق الشرقية منها وكان لهم فيما بعد دور في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.[2]

جدول يبين المناصب الحكومية التي تقلدها الشيعة إبان العهد الملكي (دون احتساب رئاسة الوزراء) :

الفترة الزمنية	مجموع المناصب الحكومية	حصة الشيعة منها	النسبة المئوية
١٩٢١-١٩٣٢ (الانتداب)	١١٦	٢٠	١٧\٧
١٩٣٢-١٩٣٦	٥٧	٩	١٥\٨
١٩٣٦-١٩٤١فترة الانقلابات	٦٥	١٨	٧\٢٧

(١) فيب مار ١٧٢

(٢) بطاطو : ١١-٧٠ .

الفترة الزمنية	مجموع المناصب الحكومية	حصة الشيعة منها	النسبة المئوية
۱۹۴۱-۱۹۴۶ الاحتلال البريطاني الثاني للعراق	۸۹	۲۵	۲۸\۱۱
۱۹۴۷-۱۹۵۸	۲۵۱	۸۷	۳۴\۷
المجموع	۵۷۵	۱۵۹	۲۷\۷
* نسبة الشيعة إلى مجموع السكان عام ۱۹۴۷ تساوى ۵۱/۴٪			

وفي هذا السياق، يلقي فيب مار نظرة عابرة على تطورات الأحداث في العراق في الأعوام (۱۹۲۰ـ ۱۹۵۸م):

(استحوذ العرب السنة على جميع مرافق الحياة الاجتماعية تقريباً... ففي الفترة الواقعة ما بين ۱۹۲۰ إلى ۱۹۳۲ كان الأشخاص الثمانية الذين تقلدوا أعلى منصب سياسي في الدولة جميعهم من السنة).

وفي معرض حديثه عن نفوذ السنة وهيمنتهم على قطاع التربية والتعليم، يضيف فيب مار

(نظراً لكون الدراسة في المرحلة المتوسطة تمثل مفتاح الرقي والصعود فإن العرب السنة حصلوا على امتيازات ملحوظة في هذا القطاع. ولم يقتصر الأمر على تلقيهم الدراسة في هذه المرحلة المفصلية، بل هيمنوا على النطاق الأوسع

في مجال كسب المهارات المهنية، ما اهّلهم لتولّي وظائف الدولة).[١]

أما بخصوص الشيعة العرب فيصرح فيب مار بأن من استطاع منهم تطوير قابلياته الذاتية، فقد تحقق له ذلک في القطاع الخاص وخارج نطاق المؤسسات الحكومية. ولكن اتساع دائرة التربية والتعليم زاد من نسبة الكفاءات الشيعية المتعلمة بحيث بلغت نسبة هؤلاء مع مطلع عام ١٩٥٨ م حوالى (٥١٣) من مجموع الشرائح المتعلمة. ويشير فيب مار إلى ان فاضل الجمالى عمل على تشجيع الشيعة على دخول دار المعلمين العالية بحيث ان بداية الخمسينيات شهدت ظهور طبقة جديدة من أصحاب الحرف والأخصائيين الشيعة ممن تم إعدادهم للعب دور مهم فى إطلاق عملية بناء اقتصاد حديث للعراق. وفى غضون تلك السنوات، دخلت إعداد من الشيعة فى وظائف الدولة، باستثناء المجال العسكري الذى ظلّت ابوابه مغلقة بوجه الشيعة، وظلّت الكليات والمعاهد العسكرية حكراً على السنة حتى ذلک الوقت.[٢]

وتماشياً مع السياسة المتبعة منذ أيام الحكم العثمانى ومعظم أيام العهد الملكي وما تبعه من مرحلة الانقلابات والتحولات السياسية السريعة، ظلّ هناک تقليد سائد يعتبر السنة هم الطبقة السياسية الحاكمة فى العراق وهم الذين يتحكمون فى مقاليد الأمور فى هذا البلد. وكانت أى محاولة لكسر هذا التقليد تتطلب جهداً ووقتاً كبيرين وسياسة خاصة قد لا تتوفر مقوماتها إلا عبر عمل انقلابي. لأن الحكومات الضعيفة التى تصل إلى سدّة الحكم لا تجد بداً من انتهاج

(١) فيب مار ٢٢٦-٢٢٧

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٩ .

سياسات تتماشى مع العرف السياسى القائم والذي يتضمن ضرورة الإبقاء على القاعدة التقليدية آنفة الذكر. وقد أسفر هذا الوضع المغلق عن ظهور ميل ونزعة لدى الشباب المثقف ثقافة أكاديمية أو حوزوية للانتماء إلى أيّ تيار معارض للنسق السلطوى القائم. وكان هذا هو السبب الرئيسى وراء إقبال الشرائح الشبابية على الانخراط بشغف إلى الجماعات اليسارية وفى مقدمتها الحزب الشيوعى، الذي تمكّن من استغلال مشاعر الرفض لدى أبناء الشرائح المضطهدة اجتماعياً واقتصادياً وعلى رأسهم الشيعة، وإقناع هؤلاء الشباب بالانضمام إليه.[1] وهذا بدوره يفسر ظاهرة إعراض السنة عن الانتماء للتيارات اليسارية والشيوعية،لأن شباب السنة ينتمون في الغالب إلى الأعيان والنخبة الاجتماعية ذات النزعة اليمينية الحريصة على المحافظة على الأوضاع كما هي.[2]

ان تمتع السنة بهذه المزايا دفع بعض الشيعة إلى تمنّى تغيير هويتهم وانتمائهم المناطقى عسى أن يشفع لهم ذلك فى تحسين ظروفهم المعاشية، وقد عبّر بعض الشعراء الشعبيين عن تلك الرغبة بقوله

لو عندي ذرّة من العقل جا بدّلت جنسيتي
جان اصبحت عاني الأصل جا سجّلت تكريتي ![3]

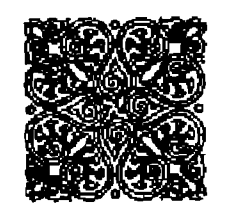
(١) المصدر نفسه ١٦١ يشار إلى ان مؤسس الحزب الشيوعى فى العراق هو الرفيق فهد ـ من الكلدان ـ بينما تصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب من الشيعة وسائر الأقليات.

(٢) الشمراني : ١٣٨

(٣) الشمراني : ١٣٩ .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث



تنامي حضور الإيرانيين في العراق مطلع القرن العشرين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثمة تقرير مفصل يشير إلي تنامي هجرة الإيرانيين إلى العراق بدءاً من العام ١٩٢١ واستقرارهم هناك لأسباب متنوعة حاول التقرير إجمالها بما يلي :

١ ـ الزوار الإيرانيون الذين يأتون إلى العتبات المقدسة ويبقون فيها بداعي الفقر والحاجة أو بقصد العيش إلى جوار الأئمة.

٢ ـ التجار الإيرانيون الذين اختاروا بغداد والكاظمية كمناطق مناسبة للنشاط التجاري فاستوطنوا فيها.

٣ ـ أعداد غفيرة من عرب خوزستان من موالي الشيخ خزعل غير الحائزين على جوازات إقامة إيرانية قرروا الاستيطان جنوب العراق وفي أطراف البصرة، وذلك لتوفر فرص عمل مناسبة في تلك المناطق بفعل الحرب العالمية الأولى. والحاصل ؛ إن جمعاً غفيراً من الإيرانيين اتخذوا العراق محل إقامة دائمية لهم، وهؤلاء المهاجرون منهم من حافظ على هويته الثقافية ولغته الفارسية، فيما تخلى البعض الآخر منهم مع مرور الزمن عن ثقافته ولغته.

ويضيف التقرير : (منذ أمد بعيد يقصد الإيرانيون العراق لزيارة العتبات

المقدسة سنوياً، وفي الأعوام الأخيرة يبلغ تعداد هؤلاء الزوار أربعين إلى خمسين ألف زائر سنوياً. وقد يمتنع البعض منهم عن العودة إلى وطنهم الأصلي لأسباب عديدة : منها الخوف أو الافتقار إلى المال اللازم لرحلة العودة، أو بقصد المكوث إلى جوار الأئمة وأحيانا كثيرة لدواع اقتصادية وتجارية لتوفر فرص العمل ووسائل التجارة في بلاد ما بين النهرين.

ولعلّ عُشر هؤلاء الزوار الإيرانيين يصرفون النظر عن فكرة الرجوع، وبالتالي فان الإيرانيين المقيمين في العراق يشكّلون الآن ثقلاً اجتماعياً مهماً، وهم يمثلون أغلبية السكان في جميع المدن المقدسة.

وفي موضع آخر من التقرير المومأ إليه أشار إلى هجرة العرب الإيرانيين إلى جنوب العراق واستقرارهم في أطراف مدينة البصرة، يقول : (اغلب التجار الإيرانيين الكبار سكنوا بغداد والبصرة والمراكز المدنية الأخرى، وهناك مبادلات تجارية ومالية بين العراق وإيران تتم سنوياً بواسطة هؤلاء التجار).

ويضيف التقرير (إن عدداً كبيراً من الفلاحين والمزارعين والعمال والكسبة والتجار والكتاب والأدباء والحرفيين ومستخدمي الدولة هم من التبعة الإيرانيين وقد انتشروا في مختلف مناطق العراق ويشكلون الآن مركز ثقل مهم، كما إن هناك مدناً كالنجف وكربلاء والكاظمية وخانقين أصبحت ذات أكثرية إيرانية بحيث إن لغة التخاطب بينهم هي الفارسية، وربما بلغ إجمالي عدد الإيرانيين في العراق زهاء نصف مليون نسمة)[١]

---

(١) كوهستاني نجاد : ٦٧-٦٨.

طبعاً، لا تبدو هذه الأرقام دقيقة، لأن إحصائية دقيقة أجريت في النجف الاشرف في مايس \ ١٩٢١ أفادت ان (٥٤٠) إيرانيا فقط هم عدد الحاصلين علي إقامة رسمية في هذه المدينة، بينما في إحصائية رسمية أخرى آجراها الانكليز عام ١٩١٩ م أشير إلي وجود (٨٠٠٠٠) مواطن ايراني في العراق !

إن هذا التفاوت الفاحش في الأرقام يكشف حدسية هذه الإحصائيات، وذلك لغياب الشروط اللازمة لإجراء إحصائيات علمية دقيقة.

أضف إلي ذلك أنه ـ ولاعتبارات مختلفة ـ كان الإيرانيون يخفون هويتهم الحقيقية أحياناً، وأحياناً أخرى يحصل العكس حيث يدعي بعض العراقيين أنهم إيرانيون !

وتوجد في هذا الصدد إحصائيات صحفية، منها ما أوردته جريدة (الحبل المتين) سنة ١٩٤٠ شاكية من شحة الصحف الفارسية في العراق وأنه توجد صحفية واحدة منها في النجف رغم ان عدد نفوس الإيرانيين المقيمين في العراق يبلغ ـ حسب الجريدة ـ مائة ألف نسمة. علماً ان مجلة (العلم) للسيد هبة الدين الشهرستاني لها قراء إيرانيون رغم صدورها باللغة العربية.[١]

الإيرانيون المقيمون في العراق وحقوقهم القضائية

في العشرينيات من القرن الماضي وضعت قواعد الدولة الملكية في العراق، ظهر العراق كدولة خاضعة للانتداب البريطاني، وقد سعت هذه الدولة المتشكلة

(١) المصدر نفسه : ٨٢ .

إلى تشريع قوانينها ونظمها الخاصة في ضوء التجارب السياسية والدستورية التي مرّت بها الشعوب الأخرى. وكانت إحدى مشاكل العراق المهاجرين الإيرانيين الذين تتراوح تقديراتهم ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف.[1]

وفي تلك الفترة كان هناك نظام حصانة للأجانب الموجودين في العراق وبخاصة البريطانيين منهم. وقد حرصت الدولة العراقية على استثناء الإيرانيين المقيمين في العراق من شمولهم بهذا القانون : الأمر الذي أثار جدلاً ونزاعاً سياسياً بين الدولتين. تقول إيران إن المواطنين الإيرانيين يقعون ضحية تعسّف المحاكم المحلية في العراق، والكثير من هؤلاء أشخاص محترمون ما بين عالم وتاجر. ففي مذكرة رفعتها القنصلية الإيرانية في النجف جاء ما يلي

(ان مواطني الدولة العلّية في أرض ما بين النهرين هم جميعاً من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، وممّن يعملون في عمران هذه البلاد وتحريك التجارة والزراعة فيها، بل أن المواطنين الإيرانيين يشكلون القسمين من سكان هذا البلد).

وعلى أية حال ؛ فإن المسؤولين الإيرانيين كانوا لفترة طويلة يتدخلون في الشؤون القضائية الخاصة بالإيرانيين المقيمين في العراق.[2] والذي يحمل الحكومة الإيرانية على التدخل هو الحالة القومية والتباين المذهبي أو العنصري بين الإيرانيين وأهل البلد. فقد جاء في إحدى الوثائق الإيرانية (إن الخلافات

---

(١) كوهستاني نجاد ١٤٦-١٥١

(٢) كوهستاني نجاد : ١٢٧-١٤٩ .

العنصرية والمذهبية الشديدة التي تعصف للأسف بأوضاع العراق، تجعل الحكومة الإيرانية وجهاً لوجه أمام مسؤولية الحفاظ على سلامة رعاياها وضمان حقوقهم). وقد اقتصرت المطالبة الايرانية في نهاية الأمر على أن تجرى محاكمة الرعايا الإيرانيين على الأقل في محاكم محلية يكون قضاتها من الشيعة وتُترك قضية الاستئناف للمحاكم الخاصة للرعايا الاجانب في العراق).

وعلّل ذلك الأمر بتفادي عامل الخصومة المذهبية القائمة في العراق على أشدّها بالنسبة للرعايا الإيرانيين.[١]

وقد تشكّلت بالفعل المحاكم الجعفرية في المناطق ذات الغالبية الشيعية وأنيطت رئاسة هذه المحاكم برجال دين شيعة.

مسألة التبعية

بعد تأسيس الدولة الملكية في العراق انبثاق الأمل بظهور عراق مستقل ذي حدود جغرافية جديدة ومحددة، رافق ذلك طرح مسألة في غاية الأهمية وهي ماهية (العراقي) وتعريفه. وقد بنى الدستور العراقي الجديد على قاعدة ان العراقي هو الشخص الذي يولد في العراق من أب مولود في العراق أيضاً شرط أن يكون الأب موجوداً في العراق حين ولادة ابنه. وفي ضوء ذلك التعريف اندرج الكثير من الإيرانيين ممن استوطنوا العراق جيلين أو أكثر. وفي ذلك الوقت كان من دواعي الفخر للمرء أن يكون إيرانيا في عراق متخلّف. وحين اعتمد المعيار أعلاه في الإحصاء الجديد اعترضت الحكومة الإيرانية والعلماء

---

(١) المصدر نفسه : ١٥٢ .

الإيرانيين، إذ على أساسه لا يبقى من الإيرانيين المقيمين في العراق إلا نزر يسير، أما الباقي فسيصبحون عراقيين لا محالة. ولقد جاء في مذكرة القنصل الإيراني في النجف في تشرين الثاني ١٩٢٤ أن المسؤولين العراقيين صرحوا بأن (٦٠٠) من الإيرانيين المقيمين في النجف و(٤٠٠) من الإيرانيين المقيمين في الكوفة سيعدّون عراقيين في ضوء القانون الجديد.[١] ويكمن قلق الحكومة الإيرانية في أن إجراء هذا القانون سيؤدي إلى فقدان إيران لجميع رعاياها في العراق.

من ناحية أخرى، فإن قضية التجنيد الإلزامي لكل من يحمل الجنسية العراقية سيجعل الإيرانيين الذين يحصلون عليها ملزمين بأداء الخدمة العسكرية، وكان ذلك سبباً لاحتجاجات كثيرة توجت بمطالبة آية الله النائيني مخبر السلطنة للتدخّل لحل المشكلة.[٢]

بالمقابل، كان بعض العراقيين يزعمون أنهم من التبعة الإيرانيين تملّصاً من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. ولا يمكن إنكار أن من أقدموا على هذا الشيء يشكلون عدداً كبيراً، ولكن المرجّح أنه حصل بالنسبة للأسر التي كانت لها جذور إيرانية بعيدة تمتدّ لأربعة أجيال أو أكثر، ومن ثم تعرّبت، فهؤلاء كانوا يسجّلون أنفسهم إيرانيين تفادياً لتسويقهم إلى الخدمة في الجيش العثماني، وبدورها كانت الحكومة الإيرانية تحثّ على هذا الشيء تعضيداً للدور الإيراني في العراق. يقال في هذا الصدد أن أسرة الخالصي كانت من الأسر العراقية التي

---

(١) كوهستاني نجاد : ١٥٦-١٥٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٩ .

اكتسبت الجنسية الإيرانية هرباً من الخدمة العسكرية.[١] وكانت القنصلية الإيرانية في العراق حريصة على أن يراجعها الرعايا الايرانيون لإثبات تابعيتهم إلا أن الكثير منهم أحجموا عن ذلک لاستلزامه دفع رسوم مالية.

ويوماً بعد آخر، تدهورت أوضاع الرعايا الإيرانيين في العراق لأن توظيفهم في الدولة بات غير ممكن، كما لم يعد بمقدورهم تملّک الأموال غير المنقولة ؛ الأمر الذي حدا بالبعض لأن يتخلي عن الجنسية الإيرانية ويكتسب الجنسية العراقية.[٢] وهذا موقف لم تكن الحكومة الايرانية تستسيغه أبداً.

إن المهاجرين الإيرانيين في العراق لم يقتصروا على العلماء أو التجار المقيمين في الأماكن المقدسة بل ان الكثير من أكراد كرمنشاه وايلام الذين كانوا يقطنون الشريط الحدودي بين العراق وإيران هاجروا ايضاً إلى العراق واستوطنوا فيه. وفي الجنوب أيضا هاجر الكثير من المزارعين والكسبة من العشائر العربية في خوزستان لأجل الحصول على عمل. سنة ١٩٣٨ فقط كان هناک ثلاثة آلاف من هؤلاء يقطنون الكوت مضافاً إلى أعداد غفيرة من العمال ممن يشتغلون في القواعد والثكنات البريطانية في جنوب العراق.[٣]

إلا ان الرعايا الإيرانيين المقيمين في النجف وكربلاء اظهروا اعتزازاً بهويتهم الإيرانية، وكانوا يرفعون علم إيران في مواكب العزاء الخاصة بهم. لكنهم واجهوا صعوبات في الاستمرار على هذا النحو في الأعوام (١٩٢٣ـ ١٩٢٨) الأمر الذي

---

(١) النقاش : ١٥٥
(٢) كوهستاني نجاد ١٦٠ـ ١٦٢ .
(٣) المصدر نفسه : ١٦٦ .

رفعته القنصليات الإيرانية في مذكرات خاصة إلى طهران. ذات الصعوبات واجهتها جمعية إيرانية خيرية كانت تسعى لمتابعة المشاكل المالية للرعايا الإيرانيين في العراق ومحاولة حلّها.

وفي محاولة للضغط على الحكومة العراقية، قامت طهران تمنع ذهاب الزوار الإيرانيين إلى العتبات المقدسة. وهذه القضية بقدر ما خلقت من مشاكل وصعوبات اقتصادية لأهالي النجف وكربلاء، أوجدت أيضاً جملة مشاكل للطلبة أدت بالبعض منهم إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى إيران وترك الدراسة في النجف، مع ذلك أبدى العلماء استعداداً لتحمل هذه المصاعب ما دامت تصبّ في قناة الضغط على الحكومة العراقية.[1]

إن تفاقم مشكلات الإيرانيين في العراق وعدم السبيل لحلّها وتسبّبها في منع المواطنين الإيرانيين من زيارة المراقد في العراق ـ رغم ما تخلّلها من فترة ترخيص ـ كلّ هذه التطورات أسهمت في ولادة رؤية جديدة في مراكز القرار العليا في إيران، وكان الركن الأول في هذه الرؤية هو تشجيع فضلاء الحوزة على استبدال موطن مراجع التقليد من العتبات العالية في العراق إلى قم ومشهد المقدسة.

وكان الهدف الأساس من هذا الإجراء هو الحيلولة دون خروج العملة من إيران.[2]

---

(١) المصدر نفسه ١٦٧ـ ١٦٨، ١٧١.

(٢) المصدر نفسه : ١٧٣.

في غضون تلك الفترة صدر في طهـران كتـاب (ديـن وشـؤون) لأسـد الله المامقاني والذي تضمّن توصية بتحويل قم ومشهد إلى مركز لاستقطاب المراجع لتفادي خروج العملة الإيرانية إلى الخارج.[1]

من الناحية المبدئية كان رضا شاه مناوئاً لذهاب الإيرانيين لزيـارة العتبـات، وذلك في سياق مخالفته للشعائر والطقوس المذهبية، وكان يعبّر عن ذلـك مـن خلال وضعه العراقيل في طريق التواصل برّياً أو عبر البريـد والبـرق والهـاتف ؛ الأمر الذي أدّى إلى تراجع عدد الزوار بشكل حاد، أعقب ذلك الحدّ مـن نفـوذ المراجع المقيمين في العتبات وتأثيرهم على مسار الأوضاع في إيران، وهـو مـا نسلّط عليه الضوء أكثر لدى الحديث عن حقبة التصدي للمرجعية من قبـل آيـة الله المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني.

التخلي عن التبعية الإيرانية من قبل بعض الإيرانيين

في تقرير تمّ إعداده في تموز ١٩٥٢ حول أوضاع الإيرانيين في العـراق، إن جمعاً كبيراً من الإيرانيين المقيمين في العراق منذ جيلـين أو ثلاثـة، وعلـى أثـر الإقامة الطويلة جداً في بيئة اجتماعية وثقافية محلّية، واحتكاكهم المستمر بأبناء البلد (العراق)، لم يعد لديهم من إيران سوى الاسم، والعراق الآن بالنسبة لهم هو الوطن الحقيقي الذي لا يفكرون بالتخلي عنه لأي سبب كـان. معظـم هـؤلاء لا يتقنون من الفارسية حتى كلمة واحدة، وقد تمكّنوا من الحصول على فرص عمل

---

(١) المامقاني : دين وشؤون : ٦٨ .

في دوائر الدولة العراقية ومؤسساتها، ويتقاضون رواتب شهرية يتدبّرون بها أوضاعهم المعاشية... لقد هجر أولئك موطنهم الأصلي (ايران) ولم يكن بوسعهم إلا ذلك لأنّ عودتهم إلى إيران تعني التضحية بكل شيء، والقانون العراقي في هذا المجال قانون متداول ومعمول به في كل بقاع العالم ومنها إيران ولا غبار عليه من هذه الناحية، لذا نوصي الحكومة الإيرانية بعدم متابعة موضوع تابعية هؤلاء، والأفضل لحلّ هذه المشكلة أن تتبنى الدولة الإيرانية قانون الجنسية المزدوجة لتمهّد الطريق أما عودة الأجيال القادمة من هؤلاء إلى الوطن الأم.[1]

يشار إلى أن هذا الأمر لم يتمّ تشريعه في إيران إلى يومنا هذا.

إن التشدد في توفير فرص العمل للأجانب في العراق أفضى إلى اكتساب حوالى ٥٦ ألف إيراني مقيم في بغداد والكاظمية، الجنسية العراقية حتى عام ١٩٣٦ م وفق ما ورد في تقرير بهذا الشأن. وبالطبع كان فقراء الإيرانيين يعانون من صعوبات جمة في الحصول علي الجنسية العراقية، بخلاف الأثرياء منهم.[2]

وحتي ذلك الحين، كان عدد العراقيين في العراق كبيراً. ففي إحصائية عام ١٩٣٦ شغل الإيرانيون نسبة العشر من سكان بغداد (٤٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف). وفي سامراء ذات الـ (١٥) ألف مواطن يوجد ألف إيراني هناك، وفي الكاظمية سبعة آلاف إيراني من مجموع أربعين ألفا، وفي البصرة حوالي (٧٥٠٠) مواطناً إيرانيا.[3]

---

(١) كوهستاني نژاد : ٢٥٦

(٢) المصدر نفسه ٢٦١

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٨، ٢٦٠ .

ومع حلول عام ١٩٣٩ وبعد مضيّ سنوات على مسعى الحكومة العراقية إصلاح الأوضاع في العراق، قدم مشروع إلى الحكومة العراقية تضمّن التأكيد على النقاط الآتية وأهمها ما يلي: (بالنظر للبحوث والدراسات التي أجرها الحكومة العراقية على مدى سنوات، بشأن الرعايا الإيرانيين، فإن عدداً من الإيرانيين تخلّوا عن جنسيتهم، وقد اعتبرتهم الحكومة الإيرانية رعايا عراقيين بموجب المادة (١٠) من القانون المذكور).[1]

بالرغم من ذلك، فإن عدد الإيرانيين الذين ما زالوا محافظين على جنسيتهم الأصلية حتى بعد مضيّ عدة أجيال على إقامتهم في العراق، يشكّلون نسبة كبيرة وقد شُرّعت هذه اللائحة من أجل حلّ مشاكلهم.

الأسر العربية والفارسية

كنتيجة لهذا الأخذ والردّ بشأن وضع الإيرانيين المهاجرين في العراق، انقسمت بعض الأسر الكبيرة المعروفة في العراق إلى شطرين : عراقي وإيراني.

وهذا الأمر شمل أسراً ذات أصول إيرانية وأسراً أخرى ذات أصول عربية. فانشطرت أسرة الجواهري مثلاً في العقود الأخيرة إلى شعبتين إحداهما حملت الجنسية العراقية والأخرى حملت جنسية ايرانية. فالشيخ عبد الرسول الجواهري وولده الشيخ محمد تقي الجواهري وأحفادهم اكتسبوا جميعاً الجنسية الإيرانية بينما يعدّ محمد مهدي الجواهري الشاعر العربي الكبير شخصية عراقية.

---

(١) كوهستاني نجاد : ٣٤٢ .

نفس الأمر ينطبق على أسرة الشهرستاني التي تقلّد بعض أفرادها الآن مناصب وزارية في العراق، في حال تجنّس بعضهم بالجنسية الإيرانية نظير السيد عبد الرضا الشهرستاني وأولاده والذين تعرضوا لضغوط كبيرة إبان عمليات التهجير القسري للإيرانيين من العراق.

ولعلّ أحد الأسباب وراء تمسّك بعض الأسر بالجنسية الإيرانية يعود إلى دواع مذهبية على اعتبار إن إيران هي الدولة الشيعية الوحيدة.

بالمقابل، ثمة عوائل ذات أصول إيرانية مؤكدة إلا أن جميع أبنائها أصبحوا عراقيين ومن بين هذه الأسر والعوائل أسرة آل الحكيم. فيما هناك أسر ذا أصول عراقية استوطنت إيران لفترة ثم عادت إلي العراق. والحقيقة التي يجب أن تقال هنا هي ان التردد بين العراق وإيران ذهاباً واياباً كان أمرا طبيعياً، خاصة الفترة السابقة على ظهور الدولة الصفوية، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة بين الدولتين بالمعنى المتعارف عليه الآن.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى آل الخالصي ؛ الأسرة المعروفة بأصولها العراقية ولكنها اكتسبت الجنسية الإيرانية تملّصاً من أداء الخدمة الإلزامية في الجيش العثماني.

المدارس الإيرانية في العراق

يمكن القول بصورة عامة، إن اجراءات السابقة المشار إليها آنفاً لم تمنع الكثير من الأسر الإيرانية العريقة من الحفاظ على هويتها، كما أن استمرار بعض دواعي الهجرة واستقرار الإيرانيين في الأراضي العراقية بقصد التجارة أو

التحصيل في المدن المقدسة أبقى على أعداد الإيرانيين المقيمين في العراق في حالة تزايد أو ثبات.

وبسبب هذا الحضور المكثّف للإيرانيين في العراق، تأسست مدارس إيرانية عديدة في مختلف مدن العراق، وكان تأسيس أول مدرسة إيرانية في النجف على خلفية الحركة المشروطية وبإشراف مباشر من الميرزا مهدي نجل آية الله الخراساني، وقد حملت اسم (المدرسة العلوية)، ومن ثم أضيف إليها وصف الايرانية لتصبح (المدرسة العلوية الإيرانية) وذلك بعد أن تكفلت الحكومة الإيرانية بتأمين نفقات الدراسة فيها. وهناك مدارس أخرى على هذا النمط مثل (المدرسة الحسينية) في كربلاء، ومدرسة (الإخوة والشرف) في بغداد والكاظمية.

وقد تبنّت الحكومة الإيرانية نفقات هذه المدارس من الألف إلى الياء.[1]

وما بين العامين ١٩٣٠-١٩٣١ تم تأسيس مدارس أخرى في بغداد والكاظمية والبصرة وكربلاء والنجف. وكان مجموع الطلبة الإيرانيين الذين يرتادون هذه المدارس في تلك الأعوام (١٩٠) تلميذا في النجف الاشرف و (٣٨) في البصرة. وفي تقرير آخر ان عدد التلاميذ (١٢٣) في كربلاء و(١٥٧) في النجف و (١٠٨) في مدرسة الشرف ببغداد.[2] وكانت المدرسة الحسينية في كربلاء تعدّ واحدة من أفضل المدارس الابتدائية في العراق.

---

(١) سامي : ٦٨ـ ٦٩

(٢) كوهستاني نجاد : ٢٦٢-٢٦٤ .

ومع مجيء حزب البعث إلى السلطة فى العراق، حمل معه نظرة سلبية جداً تجاه المدارس الإيرانية وقد ألف احد المسؤولين فى العراق كتاباً عام ١٩٨٤ حمل عنوان (المدارس اليهودية والإيرانية فى العراق)، خصص الفصل الأول منه للحديث عن المدارس اليهودية، وخصص الفصل الثاني للمدارس الايرانية بينما خصص الفصل الثالث لمقارنة بين الاثنين. تمّ تأليف الكتاب فى السنين الأولى للحرب العراقية الإيرانية، وفيه تجلّت بوضوح النزعة القومية الشوفينية.[١]

وكانت الفكرة المركزية للكتاب أن حزب الدعوة انطلق فى نشاطه من المدارس الدينية والمدارس الإيرانية التي أورد قائمة بأسمائها وأمكنتها ،مشيراً إلى استمرار فعالية هذه المدارس إلى وقت قريب

ـ مدرسة الإخوة الابتدائية فى الكاظمية، وكان فيها عام (٧٠-٧١) ٦٥١ تلميذاً بينهم الهندى والأفغاني والباكستاني.

ـ المدرسة الحسينية فى كربلاء (ابتدائية ومتوسطة)، درس فيها عام (٧٥-٧٦) ٧٢٩ تلميذاً وطالباً و ٤٦٠ تلميذة وطالبة.

ـ المدرسة العلوية في النجف (ابتدائية ومتوسطة) بلغ عدد تلاميذها ١١٢٨ تلميذاً للعام الدراسى ١٩٧١م.

ـ مدرسة الشرافة الابتدائية والمتوسطة في بغداد. تأسست عام ١٩١٣، وصل

(١) هذا التوجه ترك أثره المشهود حتى على المسائل التاريخية ، فقد ألف شخص يدعى عبد الحميد العلوجي كتاباً بعنوان (الكذبة الفارسية يفضحها الحق العربي) ، زعم فيه ان والدة الامام السجاد لم تكن جارية فارسية بل سيدة عدنانية قرشية واسمها ام اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي صدر الكتاب في العراق عام ١٩٨٧ م . وقد تصدي لنقده نبيل الكرخي على موقعه في الانترنت .

تلاميذها عام ٧١ إلى ٣٩٠ طالباً وطالبة.

وعدّد المؤلف مدارس اخرى تأسست في العراق أيام العهد البهلوي كالمدرسة البهلوية ومدرسة شاهبانو ومدرسة ثريا.[١] وفي خاتمة الكتاب أورد مؤلفه ـ وهو مسؤول أمني كبير ـ جميع المعلمين والفراشين والكتاب والموظفين في المدارس المذكورة وبلغ عددهم ٥٥٣ إيرانيا. كما ألمح إلى ان معظم المناهج كانت تدرس باللغة الفارسية.

دفاع الدولة الإيرانية عن شيعة العراق

نظراً لكونها الدولة الشيعية الوحيدة في العالم، لم تقتصر إيران على مصالح رعاياها في العراق، بل كانت تتدخل في بعض الأحيان لحماية مصالح شيعة العراق، على اعتبار إن الحكومة الملكية في هذا البلد كانت سنية المذهب رغم ما تبديه أحياناً من مداراة للشيعة. من ذلك محاولة الحكومة العراقية أيام تولي السيد محمد الصدر لرئاسة الوزراء أن يقيم الشيعة من العرب والعجم مواكب العزاء بحضور ملك العراق، وقد جوبه هذا الطلب برفض العجم ما أثار بعض المشكلات في هذا الصدد. وقد جاء في مذكرة وقعتها القنصلية الإيرانية في البصرة ما يلي لما كان الشيعة يشكلون الغالبية من سكان العراق ومراجعهم هم العلماء الأعلام. وجلّ هؤلاء بل كلّهم إيرانيون بالفعل أو بالأصل، فإن الحكومة العليّة في إيران تعتبر نفسها المدافع الطبيعي لرعاياها ولجميع الشيعة، يتعين عليها

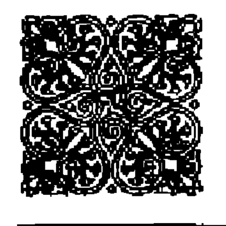
---

(١) فاضل البراك، ص ١٠٧-١١٠.

من الناحية السياسية وظائف والتزامات لابدّ من الإيفاء بها حسب توجيهات أولياء الأمور في المملكة الإيرانية.[1]

(١) كوهستاني نجاد : ٧٨ .

الفصل الرابع



المرجعية الشيعية في العراق وإيران


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المرجعية العامة

إن طبيعة المرجعية القائمة على أساس العقيدة الدينية والمذهبية حررتها من الإطار القومي والعنصرى واضفت عليها طابعاً أممياً. ويعدّ هذا الأمر ركناً أساسيا فى كل مرجعية دينية أو مذهبية ولا يختص بالتشيع. ويشهد لهذا تاريخ المرجعية فى الماضى والحاضر التى تداولتها شخصيات عربية ـ كالسيد الحكيم ـ وأخرى إيرانية ـ كالسيد الخوئى ۰ وكان لكليهما نفوذ كبير بين القطاعات الشعبية من العرب أو من العجم. مع ذلک، لا يمكن إنكار تأثير المسألة القومية فى هذا الجانب من الأساس.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام بخصوص المرجعية الشيعية هى إنها ظلّت على ارتباط وثيق بإيران حكومة وشعباً منذ بروز إيران كدولة شيعية وحيدة فى القرون الخمسة الأخيرة ومع إن المرجعية الشيعية لم تعدم من لمسات إيرانية طيلة هذه الفترة. إلا أن قوة الوجود الشيعى فى العراق وبعض البلدان العربية الأخرى كانت السبب وراء بروز عدد لا يستهان به من العلماء الشيعة الأفذاذ ممن تخرجوا من الحوزات العلمية العربية. واللافت ان العقود الأخيرة شهدت

ظهور مراجع تقليد من بين شيعة الهند والباكستان وسوريا رغم قلة أعداد الشيعة في هذه البلدان.

ولكن عموماً، هناك تصور خاطئ مفاده ان المرجعية الشيعية كانت حكراً على الإيرانيين على طول التاريخ. وهذا التصور لا ينسجم مع الحقائق التاريخية الثابتة والجلية والتي نعرفها بشأن توزّع مراجع الدين على مختلف المراكز العلمية في إيران والعراق، ولابدّ من العمل على تصحيح هذا التصور الأبتر.

عام ١٩٦٦م أعدّ بعض المحققين إحصائية حول ٥٨ مجتهداً شيعياً كبيراً على مدى ألف عام من تاريخ الاجتهاد والتقليد لدى الشيعة أسفر عن النتائج التالية:[١]

من حيث المكانة

ـ من (٥٨) مجتهداً (٣٤) مجتهداً إيرانيا و(٢٤) عربياً.

ـ من (٢٤) مجتهداً عربياً (١٦) عراقياً وسبعة سوريون وواحد من عمان.

من حيث المكان

ـ (٤٠) منهم درسوا في العراق.

ـ (١٤) درسوا في إيران.

ـ (٤) في مناطق متفرقة.

وبعد الحصول على رتبة الاجتهاد استوطن من هؤلاء

ـ (١٨) في إيران

ـ (٦) في سورية

(١) وكيلي قمي ، أبو محمد ، التشكيلات المذهبية للشيعة جامعة طهران ، ١٩٦٦ .

ـ (٣٤) في العراق

ونقول بشكل عام : إن المرجعية الشيعية نوع من الرابطة الأممية – لا الدولية – مردّها إلى الحضور الشيعي القويّ بين القوميات العربية والفارسية والكردية والتركية والباكستانية والهندية، وبالتالي فان الزعامة فيها ذات طابع أممي يتخطى الحدود القومية والوطنية. ولكن حيث ثبت بالتجربة أن ثمة تقاطعاً بين المصالح الأممية والقومية والوطنية، نشأ التصور بلزوم أن تكون المرجعية الشيعية إيرانية أو عربية أو تركية أو غير ذلك.

وهذا التصور وليد جذوره الوطنية والقومية اكثر مما هو ناجم عن مقتضيات الواقع الشيعي بذاته. والشاهد الجليّ على صحة ما نذهب إليه هو طبيعة المواقف التي تصدر عن المرجعيات الشيعية بمختلف أدوارها وأشكالها وانتماءاتها حيال القضايا والتحديات السياسية والاجتماعية التي تعصف بالأمة بين حين وآخر، والتي لا تختص ببلد معين. على سبيل المثال الأنشطة السياسية التي قام بها شيخ الشريعة الأصفهاني الذي تصدى للمرجعية بعد وفاة الميرزا محمد تقي الشيرازي. فنظرة عابرة على مواقفه من خلال البيانات التي اصدرها في المناسبات المختلفة تميط اللثام عن طبيعة الهمّ الإسلامي العام الذي كان يحمله :

ـ بيانه في الدعوة إلى وحدة المسلمين للوقوف بوجه الاعتداء على الأراضي الإسلامية عام ١٩١٠ م.

ـ إعلانه الجهاد ضد روسيا القيصرية لتجاوزها على إيران عام ١٩١١ م.

ـ إعلانه الجهاد ضد العدوان الايطالي على ليبيا عام ١٩١١.

ـ الوثائق المتعلقة بالحرب في العراق عام ١٩١٤.

ـ الوثائق المتعلقة باحتلال العراق من قبل الانجليز خلال الأعوام ١٩١٤-١٩٢٠ م.

ـ وثائق ثورة العشرين في العراق. [١]

خلال ثورة العشرين كان قادة العشائر العربية يأتمرون بأوامر المرجعية الشيعية دون أن يخطر في بال احد منهم ان هذا المرجع عربي أو فارسي، مما يدلّل على طبيعة هذه الزعامة. ونفس الكلام يتكرر لدى الحديث عن مرجعية السيد محمد كاظم اليزدي أو محمد حسين النائيني.

في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أن تكون معرفة هؤلاء المراجع مقصورة على المحيط الذي يعيشون فيه، نظراً لضعف وسائل الاتصال، وبالتالي فإن تأثيرهم يكون محدوداً بهذا المحيط ولا يتعداه إلا نادراً. وقد كان لحالة الاضطراب السياسي التي عمّت العراق في سني ما بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية أثر عميق في ذلك.

المرجعية والقضايا القومية

مع ما ألمحن اليه آنفاً من أن المرجعية من الشؤون التي تجاوزت الأمر القومية والوطنية، إلا أن ذلك لم يحل دون أن تخضع عملية اختيار المرجع لاعتبارات قومية. فبُعيد وفاة الشيخ مرتضى الأنصاري عام (١٢٨١ هـ ش\١٨٦٤ م)، كان للمرجعية أربعة مرشحين : الميرزا حسن الشيرازي،

---

(١) الجبوري ، شيخ الشريعة : ١٠٧ .

والميرزا حبيب الله الرشتي، والشيخ محمد حسين الكاظمي، والسيد حسين الكوهكمري، وقد اتجه العرب نحو الكاظمي، واتجه الترك نحو الكوهكمري، بينما توزّع الفرس على مرجعية الشيرازي والرشتي.(١) وهذا يشير بوضوح إلى أن الدوافع القومية لم تكن عديمة التأثير.

وابان العهد القاجاري والحكم المظفري على وجه التحديد ونظراً لهيمنة الأتراك واتساع نفوذهم في البلاط القاجاري، آلت المرجعية في ايران إلى فاضل الشرياني والشيخ محمد حسن المامقاني فيما تراجع النفوذ المرجعي لكلّ من الميرزا حسين والآخوند الخراساني إلى المرتبة الثانية إلى أن توفي الأوّلان وباتت الطريق معبدة أمام مرجعية الخراساني.(٢)

والواقع ان هذا الأمر لا يمكن ان يحس برمّته في خانة الاعتبارات القومية بقدر ما أن للمعرفة المناطقية أثراً في هذا الصدد. ففي زمان مرجعية آية الله الحكيم ظلّت محافظة خراسان مقفلة على مرجعية آية الله الشاهرودي (على اعتبار ان شاهرود من مدن خراسان). وكان للاختلاف بين العرب والعجم في اختيار مرجع التقليد وفي التأثير على المواقف السياسية أهمية ملحوظة، حتى قيل إن العرب الشيعة في النجف كانوا على علاقة سلبية بالحركة الدستورية المشروطة في إيران التي كانت موضع تأييد الطلاب الإيرانيين المقيمين في النجف. وقد عزا احد الكتاب هذا الموقف لشيعة العراق حيال الحركة المذكورة

---

(١) الوردي : ٨٧\٣ .

(٢) ألفت : ٢٤٨ – ٢٥١ .

إلى التركيبة النفسية العربية التي تقاوم التغيير والتحول.[١] ولا يخفى ما في هذا الرأي من تطرف.

التركيب القومي لحوزتي النجف وكربلاء

للنجف ثلاث خصائص تستهوي الإيرانيين الشيعة ؛ الأولى وجود مرقد الإمام علي عليه السلام والثانية كونها الحاضرة العلمية الكبرى للشيعة ومركز تواجد العلماء والمجتهدين. والخصيصة الثالثة وجود مقبرة وادي السلام التي تشجّعهم على البقاء في النجف والموت فيها !

إن القسم الأعظم من الإيرانيين الذين قصدوا العراق واستوطنوا فيه كان هدفهم التحصيل العلمي في هذهالحاضرة الشيعية التي يبلغ عمرها زهاء ألف عام.

الكثير من هؤلاء عادوا إلى مسقط رأسهم بعد حصولهم على رتبة الاجتهاد. والبعض بلغ حدّ المرجعية أو ما يقرب منها من المواقع العلمية، فيما عكف البعض الآخر على مزاولة التدريس فيها. أغلب هؤلاء من الإيرانيين والقليل منهم من العرب.

إن إحدى أهم الوسائل لمعرفة الانتماء القومي لهؤلاء هو ألقابهم المناطقية التي كان يظهر منها بجلاء انتسابهم إلى إيران، مضافاً إلى أن إلقاء نظرة على سيرة حياة كل واحد من هؤلاء تسلط الضوء الكافي لمعرفة ان هذه الشخصية تنتمي لأية منطقة.

في تقرير عن المدارس الدينية في كربلاء عام ١٩٢١ م وردت أسماء أربع

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٨ .

مدارس مع مدرّسيها على النحو الذى يشير إلى ان جميع الاساتذة من الايرانيين : (مدرسة حسن خان وأساتذتها الشيخ سعيد الفارسي والسيد سعيد التنكابني والشيخ محمد تقى الأصفهانى والميرزا يحيى الزرندي. اما المدرسة الهندية فقد كان يدرس فيها كل من الشيخ محمد على القمى والسيد حجى آغا مير، ومدرسة صدر الدين الشيرازى ويدرس فيها الشيخ موسى الكرمنشاهى، ومدرسة الشيخ مهدى وفيها من المدرسين الشيخ محمد حسن المازندرانى).[١]

ويقال بشكل عام ان مدينة كربلاء لم تكن تحمل طابعاً عربياً، نظراً لكثرة الرعايا الإيرانيين المقيمين فيها أكثر من النجف. وكان التحدث بالفارسية أمراً معهوداً فى كربلاء بالقياس إلى النجف التى حافظت على طابعها العروبى أكثر حتى ان بعض الإيرانيين الذين يستوطنون فى النجف يقومون بعد مدة من الزمن بارتداء الكوفية والعقال بالعربي ويتحدثون العربية. ويقال ان صدام تحدث ذات يوم خلال حملات التسفير ـ وقال إنه مر بأسواق كربلاء فوجد أصحاب المحال التجارية فيها يتبادلون الحديث بالفارسية وكأن المدينة مستعمرة . ومعلوم أن التحدث بالفارسية كان شيمة المناطق ذات الأغلبية الإيرانية من حيث النفوس، وهذا الكلام يصدق حتى على بعض محلات النجف.

أما أطراف المدينة سواء في كربلاء أو النجف، فكانت اللغة المتداولة بينهم هي العربية لكون أغلبهم من العرب. ولقد كان للدعاية البعثية أهدافها الخاصة في الإيحاء بأن الحوزة فى النجف تفتقر إلى الهوية العربية بل أكثر من ذلك اتهام

---

(١) كوهستاني نجاد ٨١ ، وقد تحفظ الأستاذ جلالي على ما ورد فى هذا التقرير معتبراً انه لا يعكس واقع الحال خاصة فى حوزة كربلاء القليلة الطلاب والتى يبدو الوجود العربى فيها واضحاً .

السكان القاطنين في المدن المقدسة بأنهم إيرانيون. وفي أيامنا هذه، فإن الكثير من علماء النجف ينتمون إلى أسر وقبائل عربية مشهورة، نظير (آل القرشي) الذين كانت بينهم شخصيات معروفة في القرنين التاسع عشر والعشرين وهم من عشيرة الجعافرة من بطون ربيعة.[١]

وثمة أيضا وجوه من أسر اخرى مثل آل الاسكافي وآل شكر وآل كعب وآل الأعسم (من عشيرة زبيد من عوف من مسروح من حرب من بطون مضر)، وكذلك آل محيي الدين وآل الطريحي وآل عيسى (من سكنة السماوة)، وآل العنيزي[٢] وآل الدجيلي وآل شبر[٣] وآل عبد الجبار والبلداوية والعادلي والخرسان وخمايسي والجبور وآل خدام[٤] وغيرهم من القبائل العربية التي برز منها علماء دين في القرن التاسع عشر.

في هذه الفترة، نشط العديد من علماء البحرين في العراق وهم عرب رغم ترددهم على أيران احياناً. ونظرة عابرة على سيرة العلماء الشيعة في القرن الثالث

(١) آقا بزرک ، الکرام : ٦٩٠

(٢) كانت قبيلة عنيزة في وقت من الأوقات في منطقة الدرعية وزعيمهم وطبان الذي حكم تلك المنطقة عام ١١٢٣ هـ إلى أن قتل عام ١١٣٩ هـ. ومن عشائرهم آل لبيب الذين يرجعون إلى آل مانع النجدي ، وقد هاجر قسم من آل لبيب إلى سوق الشيوخ واستقرو هناك ، وقصد شيخهم عبد علي لبيب وابنه النجف ام ١١٨٧ م لغرض الدراسة . وكان يتردد على عشيرة الأحلاف في البصرة حتى توفي عام ١٢٠٤ هـ. هذه القصة دليل على هجرة بعض القبائل الشيعية العربية من نجد إلى العراق أو إقامتهم هناك وتغيير مذهبهم ، ناهيک عن تشيع بعض القبائل العربية في نجد والحائل قبل ظهور الوهابية انظر (عبد الكريم محمد علي) تاريخ مدينة سوق الشيوخ (بغداد ، ١٩٩٠) ص ٢٠٦ـ٢٠٨

(٣) آل شبّر من السادة وأصلهم من الحلة . انظر آقا بزرک ، الکرام ، ٥٦٥ .

(٤) آل خدام من آل شيبة وهم من باهلة وهي قبيلة من قيس عيلان والعالم المقصود هو الشيخ خضر العفكاوي ، ولد في عفک بين دجلة والفرات .

عشر الهجري كما أوردها آقا بزرك في كتاب (الكرام البررة) تؤيد وجود نسبة كبيرة من علماء البحرين ممن يحملون ألقاباً مناطقية وينتسبون من خلالها إلى مناطق متفرقة في البحرين من قبيل : الخطّي والتوبلي والماحوزي والعصفوري والشويكي والبلادي والغريفي، والأعمّ من ذلك كله لقب البحراني الذي كان من الألقاب المميزة لعلماء القرن الثالث عشر، على غرار انتساب علماء لبنان في حوزة النجف إلى جبل عامل وانتساب علماء المنطقة الشرقية بالجزيرة العربية إلى الإحساء والقطيف.

وفي ضوء ذلك يمكن تصنيف مكونات الحوزة العلمية في النجف بحلول عام ١٩٥٧ م إلى ما يلي

- البحرين والقطيف والإحساء ٢٠
- سورية ولبنان ٤٧
- الهند وكشمير: ٧١
- هضبة التبت : ٣٢٤
- العراق ٣٢٠
- إيران ٨٩٦ [١]

أهم مراجع التقليد في فترة الهيمنة العثمانية على العراق

يبدأ العصر الأخير للمرجعية الشيعية مع مرجعية الوحيد البهبهاني الذي تولّى

---

(١) الشمراني : ١٢٢ .

منصب المرجعية للفترة (١٧٦٠-١٧٩١). وحتى ذلك الحين كانت المرجعية تحمل مفهوماً علمياً أكثر من كونها منصباً لإدارة شؤون الشيعة. وبعبارة أخرى؛ كان المرجع هو الأستاذ الذي يفوق الجميع في مقدرته العلمية والاجتهادية دون أن يشترط في ذلك أن يرجع اليه كل الشيعة أو جلّهم في التقليد. وهو الشيء الذي تبلور لاحقاً إثر تطور وسائل الاتصال وخاصة البريد والبرق، حيث لعبت هذه الوسيلة دوراً بناءً في تمكين الإيرانيين من التواصل بشكل منتظم مع مراجعهم في العتبات المقدسة.[1]

وبعد رحيل الوحيد البهبهاني تولّى عدد من طلابه مقام المرجعية تباعاً السيد محمد مهدي بحر العلوم (م ١٢١٢ هـ) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (م ١٢٢٨ هـ) ـ في النجف ـ والسيد علي الطباطبائي (م ١٢٣١ هـ) في كربلاء.

ومن بين هؤلاء الثلاثة كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء[2] مجتهداً عربياً بلغ القمة في زمانه من الناحية العلمية، وله طلاب بارزون كصاحب الجواهر وحجة الإسلام الشفتي. وقد توفي كاشف الغطاء سنة ١٢٢٨ هـ وقد رشح السيد بحر العلوم الشيخ جعفر لتولّي مقام الإفتاء بُعيد رحيل الوحيد البهبهاني.

في هذه الأثناء، كانت المرجعية في إيران تتوزع بين الملا احمد النراقي (م ١٢٤٥ هـ) والميرزا القمي (م ١٢٣١ هـ) فيما قدم السيد محمد المجاهد (م ١٢٤٢ هـ) من كربلاء إلى إيران للاشتراك في الحرب الروسية ـ الإيرانية في

---

(١) النقاش ٩٧، منظور الأجداد ٥.

(٢) وهو الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى بن سيف الدين المالكي من بني مالك العشيرة العراقية المعروفة التي تنتشر في نواحي الحلة والشامية ويعود نسبهم إلى مالك الاشتر انظر: آقا بزرك، الكرام: ٢٤٩.

واحد من أجلى مظاهر تدخل علماء النجف في الشؤون الداخلية لإيران.

ويقال ان المرجعية بشكلها المطلق والمركزي برزت كظاهرة في زمان الشيخ محمد حسن الأصفهاني النجفي (م ١٢٦٦ هـ) المعروف بصاحب الجواهر، وفي هذه الفترة استحكمت العلاقة بين حوزة النجف وإيران، حيث عرف عنه تساهله في منح إجازات الاجتهاد للطلبة، مما أدى إلى ظهور الكثير من المجتهدين من طلابه وقد انتشروا في شتى المدن الايرانية.[1]

وفي هذا السياق ينقل عن الشاه محمد القاجاري تعريضه بكاشف الغطاء بالقول ان الشيخ لديه ختم الاجتهاد يضربه على كل طالب يذهب إلى النجف فيعيده إلى إيران مجتهداً !

لكن صاحب الجواهر كان ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، حيث يقول انه لا يمنح هؤلاء إجازة اجتهاد بل يفوضهم أمر القضاء، لأنه لا يشترط في القاضي أن يكون مجتهداً بل يكفي التقليد.[2]

ويقال ان الحكومة الإيرانية قررت أن تختم على إجازات الاجتهاد المعتبرة لكي تضيّق من دائرة العمل بهذه الإجازات وما زالت هناك بعض الإجازات المختومة من قبل الحكومة.

الشيخ مرتضى الأنصاري :

من مدينة ديزفول (م ١٢٨١ هـ) تقلد وسام المرجعية مباشرة بعد وفاة

---

(١) آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها : ١٢٩\٢ .

(٢) الوردي : ٨٥\٣ .

صاحب الجواهر عام ١٢٦٦هـ وعمره آنذاك (٥٢) عاماً فقط. واستمر مرجعاً للشيعة إلى وفاته ولمدة (١٦) عاماً. وبعد المرحلة التي كان لعلماء النجف فيها مشاركة في الحروب الإيرانية ـ الروسية، لم نعهد أي فعالية سياسية في عهد صاحب الجواهر أو الشيخ الأنصاري، يمكن عدّها تدخلاً في شؤون البلد المهمة سواء في ايران أو المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني.

في مقابل ذلك، شهدت هذه الفترة ظهور تيارات دينية مثل الشيخية والبابية في الأماكن المقدسة تسبب في حصول تطورات مهمة، ولا يستبعد وجود أياد خفية حاولت التدخّل في شؤون الحوزة وقتئذ.

الميرزا الشيرازي (م\١٣١٢ هـ) :

وهو قائد ثورة التنباك ضد الانجليز والحكومة الإيرانية عام ١٨٩٢ م. وتزامن مع مرجعيته مراجع تقليد آخرون منهم السيد حسين الكوهكمري (م\١٢٩٩) والميرزا حبيب الله الرشتي (م\١٣١٢) ومحمد حسن الشريعتمداري الاسترآبادي (م\١٣١٨) ومحمد حسن الآشتياني (م\١٣١٩).

واعتباراً من سنة ١٨٧٤ م \\ ١٢٩١ هـ اصبحت مرجعية الميرزا الشيرازي مرجعية مطلقة.

إن أحداث ثورة التنباك أبرزت درجة النفوذ التي تتحلى بها المرجعية بين أوساط المجتمع والتي هي حصيلة تراكمية لجهود العلماء على مدى قرون، ويعتبر هذا الحدث الكبير ثاني مظهر من مظاهر تدخّل الحوزة في الشأن السياسي والاجتماعي بعد مشاركة جمع غفير من علماء الحوزات العلمية في

النزاع الروسي ـ الإيراني. ومع إن المرجعية الشيعية تشكلت في عهد صاحب الجواهر والشيخ الانصاري، إلا أن المرجعية بشكلها الجديد وخاصة من ناحية تأثيرها، هي البذلة الرسمية اتي فصّلت على مقاسات الميرزا الشيرازي.

وحتى ذلك الوقت، لم يكن للمرجعية الشيعية مواقف مناوئة للسلطة الشيعية، حتى أنها كانت حذرة جداً في تعاطيها مع قضية التنباك كيلا يقود ذلك إلى الطعن بالسلطة الشيعية. وهذا التوجه والأسلوب في التعامل مع السلطة ترك أثره الواضح لمدة طويلة من الزمن، باستثناء فترة حكم محمد علي شاه حيث انتكست هذه العلاقة كثيراً.

ان آخر المراجع الإيرانيين ذوي المكانة والتأثير على الحوزات العلمية في العراق هما الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني (م\١٢٢٩) والسيد محمد كاظم اليزدي (م\١٣٣٧). وقد تولى كل منهما زمام المرجعية لفترة من الزمن، ونظراً للخلاف الذي برز شعبياً حيال الحركة المشروطة في إيران، فقد انقسم الناس في تقليدهم على هذين المرجعين.

وقد كانت الأوساط الشعبية والنخبوية قد انقسمت إلى فريقين أساسيين عرف الأول منهما بأتباع (المشروطة)، وعرف الثاني بأتباع (المستبدة) وذلك تعبيراً عن الخلاف الدستوري الذي نشأ في مجلس الشعب الإيراني حول تحديد صلاحيات الحاكم أو تقييدها بسلطة نواب الشعب. وقد تعمّق الخلاف وتحول إلى نزاع ضار بين الفريقين وصل إلى حدّ اتهام كل فريق للآخر بالكفر والخروج عن الملّة.

ولعلّ أهم ما يميّز المرحوم اليزدي اهتمامه وحرصه على قصر تدخل الحوزة في الشأن السياسي على حدود الضرورة فقط. على أن هذا المنحى لم يكن هو الحاكم على الإطلاق، فالشواهد التاريخية تؤكد أن مرجعية النجف حافظت على الدوام على مستوى معين من التدخّل في سياسة البلدين (العراق وإيران)، رغم أن التوجه العام والسائد هو الذي يتفادى الدخول في المعترك السياسي. ومعروف أن السيد اليزدي بذاته اندفع كثيراً في مواقفه النضالية المناوئة للانجليز في الأعوام ١٩١٦ ـ ١٩١٧ م.

لقد بلغ تدخل حوزة النجف في الشؤون الايرانية أقصى مدىً له إبان مرجعية الآخوند الخراساني والسيد اليزدي، ومردّ ذلك إلى خطورة الأحداث والتطورات التي شهدتها الساحة الإيرانية حينها. لقد كانت الحركة الدستورية المشروطة في إيران سبباً لتدخل علماء النجف في الشأن السياسي استناداً إلى المنحى الذي سلكته من قبل مدرسة سامراء، وبفعل إصرار رجال الدين المنتشرين في أوساط المجتمع الإيراني، وقد استمر الوضع على هذا المنوال خلال الإعدام ١٩٠٥ـ١٩١١ م.

ومع حلول عام ١٩٠٨ م، انطلقت حركة دستورية مماثلة في تركيا أدت إلى تحقيق بعض المكتسبات، مما شجع الشيعة العرب ـ الذين كانوا إلى ذلك الحين متحفظين إزاء ما يجري في إيران ـ على الانخراط في سلك المطالبين بإصلاحات دستورية، فالأمر الآن يرتبط بمصيرهم بشكل مباشر. وكان أول إجراء في هذا السياق افتتاح مدرسة للشيعة في مدينة الكاظمية حملت اسم

المدرسة الجعفرية ـ العثمانية والتي كانت بمثابة بوابة العرب الشيعة للدخول إلى عالم جديد.[١]

وفي هذه الأثناء ظهر النشاط الثقافي الشيعي بوجهيه الإيراني والعربي في الكاظمية والنجف، وأقيمت علاقات ثقافية رصينة وعلى مستوى ملحوظ بين مؤسسات النشر العربية كالمنار والمقتطف والهلال ونظيراتها الشيعية في العراق كمجلة العلم في النجف ومن بعدها مجلة العرفان في صيدا.

الميرزا محمد تقي الشيرازي (م١٣٣٩ هـ) :

وهو المجتهد الذي أرخت له المرجعية المطلقة عنانها رغم وجود شخصيات علمائية بارزة من الشيعة في العراق وقتها. وقد تطرقنا آنفاً إلى دوره القيادي في ثورة العشرين العراقية.

الميرزا فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني (م١٣٣٩ هـ)

بعيد وفاة الميرزا الشيرازي في خضم أحداث ثورة العشرين، آلت الزعامة الدينية إلى الميرزا شيخ الشريعة الأصفهاني ـ الذي لم يلبث آن وافاه الأمل أيضاً ـ وفي غضون ذلك تراجع الدور الذي تلعبه مرجعيات النجف في الشأن الإيراني وذلك بفعل انشغالها بتطورات الوضع في العراق، مضافاً إلى إخفاق قادة الحركة المشروطة في إيران في تحقيق ما يصبون إليه، وتفاقم هذا الوضع مع وصول رضا خان إلى سدّة الحكم.

---

(١) آقا بزرك ـ الكرام البررة : ٧١٤/٢ .

مراجع النجف والحكومة الايرنية

لقد طرأ تحول جذرى على طبيعة التعاون والتنسيق بين السلطة فى إيران وكبار المراجع الشيعة على مدى الفترة الممتدة من العصر الصفوى حتى العصر القاجاري. وقد طرأ هذا التحول تحديداً إبان حكم نادر شاه (م ١١٦٠ هـ)، حيث اتسمت العلاقة بين السلطة الايرانية والمرجعية الشيعية قبل مجيء نادر شاه، بمستوىً عالٍ من الودية والتفاهم والتطابق فى وجهات النظر. ولكن العلاقة المذكرة تعرضت الى انتكاسة كبيرة إبان حكم نادر شاه وبعده، حتى بات المرجع يتحاشى التقرب من البلاط القاجارى لكي لا تفسد عليه شعبيته. والظاهر ايضاً أن القاجاريين كانوا غير متحمسين لوجود المرجعية العليا للشيعة فى ايران، لما يشكّله ذلك من مزاحمة لصلاحياتهم.

يقال ان الملك القاجارى ناصر الدين شاه كان شديد الخشية من عواقب النفوذ المتزايد للشيخ عبد الحسين الطهرانى ممّا جعله يفكر فى إبعاده الى العتبات المقدسة فى العراق، إلا أن المكانة الشعبية الواسعة للشيخ جعلت الملك يصرف النظر عن هذا الموضوع[١]

غير ان وجود مراجع التقليد الكبار فى العتبات المقدسة فى العراق لم تحلّ مشكلة القاجاريين، خاصة وأن وجود المراجع في العراق منحهم قدرة اكبر على التحرر من قيود الحكم القاجارى وأساليبه التعسفية.

ومع عناية علماء الشيعة بالدولة القاجارية كدولة شيعية وإدراكهم لطبيعة

---

(١) آقا بزرک : الكرام البررة : ٧١٦/١٢ .

الصراع التنافسي بين العثمانيين والقاجاريين الذين ورثوا الدولة من الصفويين، ولكن مراجع الدين الشيعة أبوا الخضوع لإملاءات السلطة القاجارية. على سبيل المثال قبل أحداث ثورة التنباك بأعوام، وحينما كان ناصر الدين الشاه قادماً من كربلاء الى النجف، خرج الكثير من العلماء لاستقباله، لكنّ الميرزا الشيرازي امتنع عن اللقاء بالملك حتى في مكان إقامته بالنجف، واكتفى بلقاء عابر معه في الحرم العلوي الشريف. وحين سأله أحد الوزراء في حاشية الملك عن السبب، أجابه الميرزا : (أنا رجل درويش، ما شأني والملوك؟!).[1]

ان أحداث ثورة التنباك ساهمت في توتير العلاقة بين الحكومة الايرانية، والحوزة العلمية في النجف، وبلغ الأمر حدّ أن يفتي بعض المراجع بأن الدولة القاجارية دولة ظالمة ومستبدة، خاصة بعد تطورات الحركة الدستورية المشروطة. وفاقم من هذا الوضع كثرة النصوص الشرعية التي تنهى عن التقرب من الملوك. وقد تجذّر هذا الخلاف أيام المشروطة ثم تعمق في زمان رضا شاه حيث تأزم الوضع كثيراً بعد ذلك.

مع كل ذلك، بقي هناك نوع من التعاطف يبديه المراجع والعلماء حيال ايران كونها مركزاً للتشيع وحصناً منيعاً له، وفي مقابل ذلك كانت الحكومات الايرانية ترى في وجود العلماء في الحوزات العراقية طريقاً لتعزيز نفوذها في العراق، شرط أن تحصل على اعتراف المراجع بشرعية هذه الحكومات ؛ الأمر الذي كان عزيز المنال.

---

(۱) الوردي . ۳/۸۷ـ ۸۸ .

وذات مرة، زعم القنصل الايراني في النجف صفاء السلطنة نقلاً عن الحاج الميرزا أبي القاسم العلامة الطباطبائي في لقاء جمع الاثنين ما مفاده ان الميرزا يرى التعاون مع موظفي الحكومة الايرانية واجباً شرعياً وهو في حكم العمل مع أمير المؤمنين عليه السلام، لأن ايران هي مركز التشيع وعاصمتها طهران.[1]

غير ان هذا الشخص رفض نشر هذه المزاعم، وهو معروف بتملّقه للسلطة، بل بعمالته للأجنبي، على أنه ينقل عنه في مناسبات اخرى قوله ان بعض المراجع يحرمون زيارة القنصل.[2] وان كانوا يطلبون بعض المساعدة المالية من القنصلية على حدّ قوله.

الشيعة ما بين العثمانيين والانجليز

في العقود الأخيرة من الحكم العثماني، ازدادت الضغوط على الشيعة في العراق، وكانوا يعدّون مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. ومع أفول نجم الدولة العثمانية برز الانجليز كقوة عظمى في معادلة الصراع، وكان على الشيعة في العراق ان يختاروا أحد الأمرين : مناهضة العثمانيين ومسايرة الانجليز، أو إعلان الجهاد ضدّ الانجليز الذي هو بمثابة انقياد لفتاوى الجهاد التي أطلقها شيوخ الاسلام العثمانيون لحشد الدعم لصالح الآستانة.

وفي هذا الصدد ينقل كامل الجادرجي ان الطائفة الشيعية كانت تعدّ أقلية أيام حكم السلطان عبد الحميد، وكان ينظر اليهم نظرة عدائية من قبل جهاز الحكم

(١) كوهستاني نجاد : ٧٩-٨٠.

(٢) المصدر نفسه ..

العثماني، ولذلك لم يفسح المجال بوجههم لتحقيق تقدم فى أى مجال من مجالات الحياة. وعلى سبيل المثال لم يكن يسمح لأى شيعى بالدخول فى مدرسة عسكرية، وما عدا حالات نادرة جداً لم يكن يتاح لأى شخصية شيعية أن تحتلَ لها منصباً من مناصب الدولة، بل ان العراقيل توضع فى طريق دخول أبنائهم المدارس الحكومية.[1]

وقد تكون وراء ذلك دوافع قومية بقصد الحؤول دون نفوذ الحكومة الإيرانية، وليس لأسباب طائفية فحسب.

ويعلّق حسن العلوي عند نقله الكلام السابق للجادرجي بالقول ان اللافت للنظر أن القادة السنة في العراق الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة العثمانية كانوا لا يجيدون العربية بطلاقة وذلك ان معظم دراستهم الابتدائية فى المدارس التركية، لذا كانوا يستعينون بالوزراء الشيعة في حال احتاجوا الى اصدار بيان باللغة العربية ! ويضيف العلوي حقائق أخرى تدلّ على ظاهرة التمييز الطائفي منها أن الحكومة العثمانية كانت تقوم بإرسال شخصيات سنية كمتصرفين وحكام للولايات والمدن الشيعية مثل كربلاء والعمارة والديوانية والناصرية.[2]

والمفارقة الأكبر ـ يضيف العلوي ـ ان العلماء السنة في العراق لم يتقيّدوا بدعوات شيوخ الاسلام فى اسلامبول والتي تنصّ على وجوب محاربة الانجليز الكفار، بل إنهم جاروا الانجليز، في حين أن الشيعة الذين تعرضوا لاضطهاد

---

(١) انظر : من اوراق كامل الجادرجي ، بيروت : ١٩٧١ ، ص ٨٦ .

(٢) العلوي : ٥٩ .

وقمع مرير لفترات طويلة ولم تعترف الدولة العثمانية بهم رسمياً، رفعوا راية الجهاد بوجه الانجليز ! وقد أورد العلوى قائمة بأسماء العلماء والشخصيات السنية التي تواطأت مع الانجليز.[١] هذا، وقد بارك أحد علماء الشيعة دخول القوات الانجليزية الى المدن المقدسة، ولكن السيد محمد كاظم اليزدى أفتى بفسق هؤلاء، وجاء في فتواه (الرجل الذى ارتكب هذا الفعل الشنيع فاسق فاجر لا يدفن في مقابر المسلمين).[٢]

كانت النجف والكاظمية مركز الحركة الجهادية ضد الانجليز، وقد سجل الشيعة الذين ذاقوا الويلات من الحكم العثماني، اكثر المواقف شجاعة في الدفاع عن الدولة العثمانية ؛ الأمر الذى أثار دهشة الانجليز. ولكن هذه المواقف لم تجد من يقدّرها ويثمنها بعد تشكيل الدولة العراقية الجديدة، ولم تظهر مبادرة لتخليد ذكرى ابطال هذه المواقف. والسبب في ذلك هو الدوافع القومية والطائفية التي كانت حريصة على إبقاء الشيعة على هامش الأحداث.

تأييد علماء النجف لمشاريع الوحدة الاسلامية

لا ينبغي الشك أن أحد المعالم الرئيسية للحركة السياسية في النجف خلال العقود الأولى للقرن العشرين، هي تأييدها ومجاراتها للحركات الجهادية السنية في شتى أرجاء العالم الاسلامي، وفي هذا السياق توجد الكثير من البيانات والفتاوى التي أطلقها علماء شيعة دون أن يكون الهاجس الأساس فيها التشيع،

---

(١) العلوى : ٦١-٦٤.

(٢) الجبورى : السيد محمد كاظم اليزدي : ٦٢٥.

حيث يظهر من هذه البيانات ان انتصار الاسلام ونبذ الهيمنة الغربية هو الهم الأول والأخير لأصحاب هذه الفتاوى والبيانات، وهذا التوجه يعكس انفتاح الذهنية الثقافية الشيعية في تلك الاثناء، خاصة المدرسة النجفية.

وقد رحّب الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار بالفتوى التي أصدرها آية الله الخراساني وآية الله المازندراني، وعدّها أساساً لمشروع وحدة المسلمين (المنار، ١٤ (١٩١١)، ص ٧٧- ٧٨). وبعدها بفترة وجيزة هاجمت ايطاليا ليبيا، ما دعا علماء الشيعة مرة اخرى الي اصدار فتوى بوجوب الجهاد ضدّ المحتل الايطالي.

وسواء نجحت هذه الفتاوى في التأثير خارج العراق أم لا، فإنها مكّنت علماء الشيعة من تحقيق خطوة متقدمة في إنشاء جبهة دفاعية.[1]

وبعيد احتلال البصرة من قبل الانجليز عام ١٩١٤ م ارتفعت دعوات الجهاد من جميع المساجد في العراق، وقد استثمرت السلطان العثمانية هذه الظاهرة ووظّفتها لمصلحتها في الصراع. وكان في مقدمة علماء الشيعة الذين تجاوبوا مع هذا التوجه، الميرزا محمد تقي الشيرازي الحائري و شيخ الشريعة ومصطفى الكاشاني ومحمد سعيد الحبوبي ومهدي الحيدري ومحسن الحكيم.[2]

إلا أن هذا التحرك لم يؤت ثماره، وتمكّنت بريطانيا من السيطرة على جميع التراب العراقي بحلول العام ١٩١٨ م.

لقد استمرت الدولة العثمانية بالتعاطي مع الشيعة على أساس استغلالي بحت،

(١) النقاش ١١٠

(٢) المصدر نفسه : ١١٢ .

وظلّت الشريحة الشيعية في المجتمع مصنفة على الدرجة الثانية. واستمر الوضع على هذا المنوال الى ان استقر الانجليز بشكل كامل وأسسوا دولة ملكية في العراق ونصّبوا فيصل ابن الشريف حسين ملكاً، فيما يبدو أنه تنفيذ لمطلب تقدم به الشيعة.

المرحلة الثانية : الملكية

انطلقت ثورة العشرين العراقية بقيادة آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي بوجه الانجليز الذي كانوا يرومون سلب العراق استقلاله وتحويله الى مقطعة انجليزية ـ هندية.ورغم انكسار هذه الثورة الشيعية ـ بقياداتها وقواعدها الجماهيرية ـ إلا ان الانجليز تراجعوا عن مخططاتهم الأولى واكتفوا بالمجيء بحكومة ذات زعامة عربية تكون موالية لهم.

ويعتقد العلوي أن هدف البريطانيين هو (تهنيد) منطقة الخليج عبر إرسال اعداد غفيرة من الهنود الى جنوب العراق وتوطينهم هناك. غير ان انتفاضة مجتهدي الشيعة ويقظة عشائر حوض الفرات الاوسط والجنوب بددت أحلام البريطانيين وحافظت على عروبة العراق، حتى كان العراق أول دولة عربية تنال استقلالها الرسمي، وكان هذا إحدى ثمار ثورة العشرين المجيدة التي بدا في الظاهر أنها لم تحقق أهدافها ولكنها حالت على أي حال دون الهدف البريطاني الكبير.

وحين ارتفع العلم العربي فوق سارية مبنى حكومي في كربلاء أنشد خليل عزمي الأبيات الآتية :

بشراک یا کربلاء قومي انظری العلما   علی ربوعک خفاقاً ومبتسما
وكفكفي دمعک الهطال وابتهجي   فإنّ بند بني قحطان قد حكما[1]

لقد أفتى علماء الشيعة أيام ثورة العشرين بالجهاد ضد المحتل البريطاني ودعوا الى مواجهة مخططاته الرامية الى استعمار العراق وجعله محمية بريطانية علي غرار ما حصل في الهند. وكان الهدف المعلن للعلماء بزعامة الميرزا الشيرازي هو تشكيل حكومة عربية يقودها ملک أو أمير من أحفاد الشريف حسين مع وجود مجلس شوری وطني.

وجاء في بعض المذكرات وصف (الحكومة الاسلامية) تعبيراً عن مرادهم هذا. وكانت الوحدة بين الشيعة والسنة أحد الشعارات الرئيسية لهذه النهضة، وهو مطلب تم التأكيد عليه من قبل الشيعة على وجه الخصوص، وقد انعكس ذلک بوضوح في الشعر السياسي الذي رافق تلک المرحلة، من ذلک

لا تقل جعفرية حنفية   لا تقل شافعية زيدية
جمعتنا الشريعة الأحمدية   وهي تأبى الوصاية الغربية [2]

والقضية الجديرة الملاحظة هي أن ثورة العشرين حافظت على هويتها العربية رغم أن زعماءها كانوا من ذوي الأصول الايرانية، والسر في ذلک أن القادة الميدانيين للثورة هم من الشخصيات العربية من وجهاء المدن ورؤساء القبائل العربية، كما أن ادبيات الثورة سجلت جميعاً باللغة العربية مضافاً الى أن مضامينها

---

(١) العلوي : ١٣٧

(٢) النقاش : ١٢٤ .

كانت تتناول قضايا ذات نزعة قومية وتتشبث بـالأمالة العربية كمرجع معنوى للنهضة. وأورد حسن العلوى نماذج من شعر هـذه الثورة تتجلى فيها هذه المعاني.(١)

ومن الطريف جداً البرقية التى بعث بها الميرزا محمد تقى الشيرازى المعروف بالميرزا الثانى الى الملك فيصل فى الأيام الأولى لتأسيس الدولة العربية فى العراق، حيث تحدثت هذه البرقية عن (الوحدة العربية) كمظهر من مظاهر المجد والعظمة الاسلامية، وحملها السيد محمد رضا الشبيبى مندوباً عن الميرزا الى الملك.(٢)

وهناك عدد لا يحصي من البيانات الصادرة عن الميرزا محمد تقي الشيرازى وشيخ الشريعة الاصفهانى وعلماء آخرين تتناول جميعها موضوع وحدة العراق واستقلاله عن هيمنة الأجنبى.

وبنهاية ثورة العشرين أقصى الشيعة عن الميدان السياسى لفترة طويلة من الزمن. وذلك بعدما أدرك البريطانيون والقوى السنية التي هيمنت على الحكم في العراق ضرورة إضعاف العلماء الشيعة عبر قطع صلاتهم بايران.(٣)

وتشكلت الدولة العراقية الحديثة ونصّب فيصل ملكاً للعراق ليبقى العراق تحت الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٣٢ م. ووضعت بريطانيا والحكومة العراقية الموالية لها نصب عينيها قضية ابعاد المجتهدين الى ايران، أو على الأقل

---

(١) العلوى : ١٣٠.

(٢) العلوى : ١١٤

(٣) النقاش : ١٢٧ .

الحدّ من فاعليتهم، ومن اساليب ذلک تحريض العشائر على الحوزة من خلال اثارة النعرة القومية بين ابناء تلک العشائر.

والحاصل أن انكسار شوكة المجتهدين الشيعة في هذه المعركة قد خلّف تأثيراً كبيراً على مواقفهم السياسية تجلّى واضحاً فى المواقف التى اتخذوها حيال قضايا مشابهة نظير الهجوم الأمريكى على العراق عام ۲۰۰۳ م.

وعوداً على ذى بدء، فقد خططت الحكومة البريطانية لإجراء انتخابات فى العراق عام ١٩٢٢ م، وذلک من أجل اضفاء الشرعية على التواجد البريطانى فى هذا البلد. ولكن هذا المخطط جوبه بفتوى اصدرها كل من المراجع الثلاثة فى العراق آنذاک : الأصفهانى والنائينى ومهدى الخالصى (م رمضان ١٣٤٣ ق فى مشهد)، ودعت الفتوى الى مقاطعة هذه الانتخابات واصفة اياها باللاشرعية ؛ الأمر الذى أدى إلى نفى هؤلاء المراجع الثلاثة الى ايران، وذلک سنة ١٩٢٣ م وبقرار من الملک فيصل ورئيس الوزراء عبد المحسن السعدون اللذين كانا يعتبران مراجع الشيعة (أجانب) فى حال ان الملک فيصل بذاته كان اجنبياً من أهل الحجاز !

بعد هذه المرحلة عمل الملک فيصل على فسح المجال لعلماء الشيعة للدخول فى الميدان الحكومى، ومثال ذلک تعيين السيد هبة الدين الشهرستانى وزيراً للمعارف فى الحكومة العراقية، والذى استطاع بدوره تحقيق بعض الانجازات خلال فترة توليه لهذه الحقيبة الوزارية، ومن ثم كانت له خدمات

جليلة في الحقل القضائي بعد توليه ادارة المحاكم الجعفرية.[1]

كما تم اسناد منصب رئاسة الحكومة الى السيد محمد الصدر لعدة شهور في سنة ١٩٤٨ م، وقبله أسند المنصب ذاته لفترة وجيزة ايضاً الى شخصية شيعية هو صالح جبر. وقبيل انهيار الحكم الملكي في العراق تولّى عبد الوهاب مرجان وهو شخصية شيعية ايضاً منصب رئيس الوزراء للأعوام ١٩٥٧ـ ١٩٥٨.[2]

جدير ذكره ؛ انه عقب وفاة الملك فيصل في حزيران ١٩٣٣ اثر نوبة قلبية، تولى العرش مكانه ابنه الملك غازي والذي قتل في حادث سيارة سنة ١٩٣٩ م بسبب الثمالة، واصبح ولده فيصل الثاني ملكاً على العراق من بعده لكنه كان صبياً وظلّ العرش تحت وصاية خاله عبد الاله حتى عام ١٩٥٣ م حيث تولّى العرش بشكل رسمي لكنه لم يلبث طويلاً حتى قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم ووقعت مجزرة البيت الملكي التي قتل فيها جميع أفراد العائلة المالكة تقريباً.

ويعدّ هبة الدين الشهرستاني واحداً من اشهر الوزراء الشيعة ابان الحكم الملكي في العراق، وقد عرف عنه علاقاته الطيبة بايران، وعاش طويلاً بعد الوزارة وتردّد كثيراً على ايران. وتم استيزاره في عهد الملك فيصل الثاني لفترة وجيزة، لكنه ترك تأثيراً كبيراً على القطاع التربوي وطوّر المدارس في الكاظمية، وأصبحت الأخيرة مركزاً علمياً وثقافياً مرموقاً بفضل انتشار مجلة العلم وبناء

---

(١) الكاظمي ، محمد صالح ، ص ٤٥ .

(٢) بطاطو : ٢١٦/١ .

المكتبات العامة.

بيد أن المبدأ الذي ظلّ مهيمناً على معادلة الحكم في العراق ايام العهد الملكي وما بعدها هو (أن الضرائب على الشيعة والمناصب للسنة)، وهو أمر أدركه الملك فيصل ـ كما يقول بطاطو ـ وحاول معالجته.[1]

المرجعية الشيعية

السيد ابو الحسن الاصفهاني (م١٣٦٦\١٩٤٧) :

أصبح هو المرجع المطلق في حوزة النجف، وهناك مراجع آخرون في زمانه، ولكنهم من الدرجة الثانية أو قل الجيل الثاني من المراجع الذين لم يتسن لأيّ واحد منهم أن يمسك بمقاليد المرجعية على نحو مطلق وتزامنت مرجعية هؤلاء مع سلطنة رضا شاه بهلوي في ايران، وهم اربعة

ـ الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي (م ١٣٥٥ـ ١٩٣٦م).

ـ الشيخ محمد حسين كمباني الاصفهاني (م ١٣٦١ـ ١٩٤٢).

ـ الميرزا محمد حسين النائيني (م ١٣٥٥ـ ١٩٣٦).

ـ الآغا ضياء الدين العراقي (م ١٣٦١ـ١٩٤٢).

وكان السيد ابو الحسن الاصفهاني هو المرجع الأعلى في هذه المرحلة وان شاطره في المرجعيّة الميرزا النائيني في ايام حياة الأخير.

ورغم كون السيد ابو الحسن اصفهانياً إلاّ انه أظهر مقدرة في السيطرة على

---

(١) بطاطو ـ ١\٤٢ .

شؤون الحوزة في النجف الاشرف، وقد جمع بين اهتمامه بالسياسة ومناصرته للحركة الدستورية المشروطة وبين نزعته الاصلاحية فيما يرتبط بالشؤون الدينية، ومعروف عنه تأييده لفتوى السيد محسن الأمين في تحريم ضرب السلاسل والتطبير من بين الشعائر الحسينية وأجاز الاصفهاني صرف سهم الإمام لدعم نشرة (الاسلام) التي كانت تصدر في شيراز.

يذكر ان الميرزا الثاني كان يرجع مقلّديه في المسائل الاحتياطية الى السيد الاصفهاني مما أدى ازدهار مرجعية الأخير.

لقد كان النائيني والأصفهاني خليفتي الميرزا محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة، وقد ورثوا عنهما نهضتين فاشلتين في العراق (١٩١٤ـ١٩٢٠) ولذا كانا يتحركان بحذر اكبر. وقد اصطدم هذان العلمان ومعهما آية الله الشيخ مهدي الخالصي بالحكومة ايام الملك فيصل وقاطع الثلاثة انتخابات سنة ١٩٢٣ م. وإثر ذلك تم نفي الشيخ الخالصي الى ايران، وبعده بمدة نفي النائيني والاصفهاني ولكن بلياقة اكثر دون أن يصحب ذلك ردّ فعل من قبل الجماهير العراقية آنذاك. وقد التقى العلماء الثلاثة ـ (رضا خان) ودار معه حديث حول إنهاء حكم سلالة القاجاريين. في غضون ذلك كانت العلاقة بين الحوزة والدولة في ايران تشهد توتراً كبيراً مردّه الى ظهور الدولة الحديثة في العراق وتربع رضا خان على سدة الحكم في ايران. كل ذلك يأتي في سياق مساعي البريطانيين لإيجاد حكومات قوية في المنطقة لمواجهة المدّ الشيوعي. كانت النظرة السياسية التي تحملها الحكومات الايرانية حيال المراجع في النجف، نظرة ايجابية ساندة

وذلك الى ما قبل استحواذ (رضا خان) علــى الـسلطة فــى ايــران ورفعـه لـواء العلمانية، والسبب في ذلك ان هؤلاء المراجع كانوا إيرانيين في الغالب، ويمثلون من الناحية السياسية أحد مرتكزات التأثير في الواقع السياسي العراقــي. وكانــت ايران اشترطت على الحكومة العراقية ـ لأجل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ـ ان تلتزم الأخيرة باحترام مراجع التقليـد الـشيعة وأن يكــون أيُّ تغييـر تقترحـه الحكومة العراقية في وضع العتبـات المقدسـة منوطـاً موافقـة المراجـع الـشيعة بالاجماع.[١]

بيد أن هذا الموقف تبدل بعد عام ١٩٢٧ م. ان سياسة رضا خان في مرحلـة ما قبل الملوكية قامت على التقرب من علمـاء الـشيعة فــي محاولـة للحـدّ مـن نفوذهم وتأثيرهم على مجرى الأحداث السياسية في ايـران، ومنهـا علــى وجـه التحديد إنهاء هيمنة القاجاريين على الحكم.

وفي هذا المقطع الزمني يمكن تصور مرحلتين ؛ حرص رضا خان في الاولى فهما على توطيد صلاته بعلماء الدين ومراجع التقليد، وقد استطاع توظيف هــذه الصلات في تحقيق مآربه الذاتية في فترة تواجد كل من النائيني والاصفهاني في ايران، وكان يتمتع بشخصية انتهازية، وأضفى على نفسه مسوح الايمان والتـدين بحيث كان مراجع النجف من أوائل المهنئين له بعد انقلابه على بني قاجار.[٢]

استمر هذا الموقف الطيب من قبل مراجع النجف تجاه (رضا خان) حتى بعد

---

(١) كوهستاني نجاد : ٤٣٣

(٢) منظور الاجداد : ١٠٠ .

اتخاذه لبعض الخطوات المثيرة للجدل والسخط الشعبي في الداخل الايراني كإقرار قانون الخدمة الإلزامية. حيث امتنع علماء النجف عن اتخاذ موقف مناوئ للشاه بشكل صريح.[١]

وقد حملت البرقية التي بعث بها النائيني الى الشاه لهجة نصح وعتاب حيال بعض الاجراءات التي اعتبرت منافية للدين وطلب منه ان يسخّر سلطته (المباركة) لحفظ البلاد.[٢]

ويعود هذا التبدل في النهج الى زمان فشل الحركة المشروطة في ايران ودخول رجال الدين في موقف حرج، ما أدى الى بزوغ نجم المرجعية في العتبات المقدسة في العراق والتي هي امتداد لمرجعية الميرزا وآخرين في سامراء والنجف. وهنا برزت مشكلتان، اولاهما ان السيد ابا الحسن الاصفهاني لم يعد ميّالاً للتدخل في الشأن السياسي الايراني، والأخرى ان المسافة الشاسعة بين البلدين شكلت عائقاً دون وصول اخبار الجانب الايراني بسرعة. وبالتالي تأتي ردود الأفعال متأخرة بعض الشيء.

ويقال إنه في حادثة هجرة علماء اصفهان بزعامة الحاج الآغا نور الله الى قم احتجاجاً على بعض اجراءات الشاه، صرّح آية الله الأصفهاني بأن السادة العلماء في قم يتدخلون في الشؤون السياسية للدولة، وهذا ما لا يليق بوظيفة رجل الدين.[٣]

---

(١) المصدر نفسه : ١٣٣

(٢) المصدر نفسه : ٦٢

(٣) منظور الاجداد : ١٢٣ .

بعد ذلک كثرت المضايقات الحكومية ضد الشعائر الدينية عام ١٩٢٧ م على خلفية الترويج لفكرة التجديد، وخاصة بعد حادثة المرحوم البافقي في قم وقيام رضا خان بضربه شخصياً، بدأت الأنباء تتوافد على النجف. وفي تقرير بعث به (محمود أرفع ويس) القنصل الإيراني في النجف الي طهران تناول فيه مجريات لقاء دار بينه وبين السيّد الاصفهاني، ذكر أن الأخير أشار الى تقارير تصله من ايران حول مضايقات السلطة لرجال الدين ومحاربتها للمظاهر الدينية.[1]

مع ذلک كان ردّ فعل هجرة العلماء من اصفهان الى قم محدوداً في النجف، والظاهر أن رجال الدين الموالين للحكومة الايرانية كانوا يبذلون قصارى جهودهم لإحباط أي محاولة للتأثير على مراجع النجف وحثّهم على اتخاذ موقف إزاء الحكومة الايرانية.

وعام ١٩٢٨ م، اشتدت المضايقات الدينية وأقدمت السلطة على نفي بعض علماء تبريز، وعلى أثر ذلک تشكلت في النجف رابطة من الشخصيات الايرانية بزعامة آية الله النائيني طالبت باعادة علماء تبريز من قضاهم ورفع القيود التي وضعتها السلطات حيال الزيّ الديني. وقد وردت هذه الاحتجاجات في مذكرة أرسلتها القنصلية الايرانية في النجف.[2]

من ناحية أخرى، تسببت السياسات النقدية التي اتبعتها حكومة رضا خان في هذه المرحلة بمزيد من المعاناة لعلماء النجف الذي كانوا يعتمدون على

---

(١) منظور الاجداد ١٢٣-١٢٥

(٢) كوهستاني نجاد : ١٧٧ .

وصول مبالغ الحقوق الشرعية. وذات مرة أبلغ مبعوث رضا خان السيد أبا الحسن الاصفهاني بأن حكومة الشاه لا تمانع تحويل الأموال من ايران الى النجف عبر وكلاء السيد هناك، لكن شريطة أن تتعرف على الأشخاص الذين يستفيدون من هذه المبالغ إلا ان السيد الاصفهاني رفض هذا الطلب بشدة.[1]

علاوة على ذلك فإن السياسة المشار اليها قلّصت من عدد الزوار وتحول الكثير منهم الى الطرق غير القانونية في السفر الي العراق ؛ الأمر الذي انعكس سلباً على العلاقة بين البلدين. ان إبقاء الأبواب موصدة بوجه الزائرين الايرانيين، كان يحصل احياناً تحت غطاء الخشية من الاجراءات التعسفية لرجال الأمن العراقيين.[2]

وهذا واقع لم يكن بعيداً عن الحقيقة جداً، فالمسؤولون الأمنيون العراقيون كثّفوا تدريجياً من إجراءاتهم بحق الايرانيين وبخاصة رجال الدين منهم. هذا التطور الدراماتيكي في مجريات الأحداث ولّد لدى المراجع الايرانيين في النجف شعوراً بأن الدولة الايرانية هي الملاذ الوحيد الذي يمكن أن يلجأوا اليه في مثل هذه الظروف ؛ الأمر الذي أدركه رجال السلطة الايرانيون واستثمروه في الحدّ من الفعاليات المناهضة للسلطة لدى بعض رجال الدين الايرانيين، وذلك عبر ترويج القناعة أعلاه، وتوظيفها ضد تحرك علماء اصفهان وهجرتهم الى قم احتجاجاً على السلطة في طهران.[3]

(١) منظور الاجداد ١٠٣

(٢) منظور الاجداد : ١٣٦

(٣) منظور الاجداد : ١٣٨ .

وحتى ذلك الحين، كان التصور السائد بين صفوف رجال الدين الشيعة ان عظمة التشيع من عظمة ايران وعظمة إيران هي من عظمة السلطنة !

وفي هذا الصدد كتب آية الله الاصفهاني يقول

(ان عظمة مقام السلطنة العظمى هي أمل كل مؤمن متدين، وذلك ان استقلال الدولة الإسلامية وحفظ الاسلام وصيانة مصلحة المسلمين تتأتى من ذلك).[1]

لقد كان الشاه بصدد تدبير مكيدة حتى تسنى له عام ١٩٢٩ ان يبعث بخواتم من الماس لكل من الاصفهاني والنائيني والميرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني.[2]

في هذا العام كان آية الله الاصفاني والميرزا النائيني يشتكيان من عدم وصول الأموال من ايران وان الأموال التي تصل اليهم هي فقط من افغانستان وزنجبار، وبالتالي كانوا يستفيدون من الأموال لدعم الفقراء في ايران، اما الآن فإن ما فيأيديهم من اموال لا يغطي النفقات اللازمة لادارة الحوزة فيالنجف.[3]

ومع تمادي الحكومة الايرانية في توجهاتها العلمانية أُخذت العلاقة بين النجف وايران بالفتور يوماً بعد آخر. وهي حالة أضرّت كثيراً بالطرفين، ففقدت الحكومة الايرانية سنداً مهماً لها في مجال التواصل مع العراق، وفي مقابل ذلك سحبت حكومة رضا خان يدها من الوضع في العراق، وتخلّت عن دعم علماء

---

(١) منظور الاجداد : ١٥٧

(٢) منظور الاجداد : ١٥٩

(٣) منظور الاجداد : ١٦١ .

النجف امام الضغوط المتوقعة من الحكومة العراقية ضدّهم. في هذه الأثناء، تأجحت المشاعر القومية بين العرب والعجم أو بين العراقيين والايرانيين. وفي سنة ١٩٢٧ م رفض القنصل الايراني تدخّل أحد رجال الدين بأن الذي حمله على ذلك هو حسّه بالوظيفية، أجابه القنصل :

(يكفيک النجف الأشرف كمسؤولية دينية واسلامية، أما ايرن ففيها الكثيرون ممن هم أجدر بهذه المسؤولية هناک).[1]

بعد رحيل الاصفهاني، تولّى آية الله القمي مقام المرجعية لفترة وجيزة لا تزيد على ثلاثة أشهر. كان القمي مستوطناً في العراق وسافر الى ايران عام ١٩٤٣ م وحاول ان يتدخل في بعض القضايا الايرانية بخصوص قضايا عدة كالحجاب والأوقاف، وتمكن من تحقيق نتائج في هذا السياق. ولم يكن السيد الاصفهاني ليوافق على هذا المنحى كما قيل.[2]

في ظلّ مرجعية الاصفهاني، برز مرجع عربي من آل كاشف الغطاء وهو الشيخ محمد حسين (م ١٣٧٣ ق) وكان يحظى بشهرة علمية في النجف ويتمتع بعقلية متفتحة وذات نزعة تجديدية بالاضافة الى مواهبه الأدبية والشعرية. وكان لذلک انعكاساته الخاصة حتي على مستوى ايران حيث ترجمت بعض مؤلفاته الى الفارسية.

رغم ذلک، فقد خطف السيد ابو الحسن الاصفهاني قصب السبق والريادة

---

(١) منظور الاجداد : ١٢٨

(٢) منظور الاجداد : ٢٩٤ــ ٢٩٦ .

بسبب مواجهاته المختلفة بحيث فرض نفسه على الواقع الحوزوى فى منطقة عربية ومع وجود مرجع عربى.

وقد اهتم أحد المؤرخين بالمنحى الخاص لدى السيد الاصفهانى المتمثل ببذل عناية خاصة بقضايا الارشاد الدينى فى العراق، وعلى الخصوص فى المنطقة الشمالية من هذا البلد حيث يتمركز أهل السنة. ويشير محمد صالح الكاظمى الى أنشطة الاصفهانى قائلاً ان المنطقة الشمالية كانت الى ذلك الحين تفتقر الى البعثات الدينية الإرشادية، لكن الاصفهاني أرسل اليها الكثير من الوعاظ والمرشدين لهداية الناس من الظلمات الى النور.[١]

انتقال المرجعية الى ايران

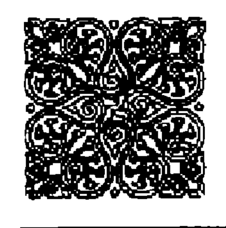
عقب وفاة آية الله السيد ابى الحسن الاصفهانى انحسرت المكانة المطلقة لمرجعية فى العتبات المقدسة فى العراق، وبدأت مرجعيات اخرى بالظهور فى اماكن مثل قم المقدسة التى شهدت سطوع نجم المرجعية وآية الله السيد البروجردى (م١٣٨٠ق ـ ١٩٦١ م). ومعها شدّت المرجعية رحالها الى ايران، بحيث انعكس مسار التأثير، فبات للسيد البروجردى تأثير على الوضع فى النجف ولو على نحو محدود من قبيل تأسيس مدرسة او تقرير راتب شهرى للطلبة. اما من الناحية السياسية فلم يكن هناك تأثير ملحوظ للمرجعية المستقرة فى ايران على مسارات الأحداث فى العراق. وبشكل عام يمكن القول أن

(١) الكاظمى ، محمد صالح : ص ١٧ .

مرجعية النجف كان لها تأثير جاد في التحولات السياسية والاجتماعية في ايران، والعكس غير موجود على مستوى ٌ واضح حتى في المراحل التاريخية التي تحولت المرجعية الاصلية فيها الى الجانب الايراني.

كان للمرحوم البروجردي اعتناء خاص بحوزة النجف، وكان يخصص على طبق العادة مرتباً شهرياً لطلاب العلوم الدينية فيها كما قام بتشييد مدرسة. وجرياً على المعتاد في قم، اشترط البروجردي على طالب العلم أن يؤدي امتحاناً لكي يتمتع بالراتب، لكن هذا الأمر جوبه باعتراض أحد العلماء البارزين في النجف وهو آية الله الاصطهباناتي فألغيت الفكرة.

الفصل الخامس



المرجعية في العراق وتحديات العصر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عودة المرجعية الى العراق : آية الله الحكيم

في هذا المقطع الزمني، تعددت المرجعيات، فكان آية الله السيد محمود الشاهرودي (م١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) وآية الله السيد أبو القاسم الخوئي في العراق، وآية الله روح الله الخميني (م١٩٨٩م) وآية الله السيد محمد رضا الكلبايكاني وآية الله السيد محمد كاظم شريعتمداري في ايران. ولكن مرجعية آية الله الحكيم فرضت نفسها على الجميع، وذلك بسبب اقبال الناس عليها ولما تمثله النجف من عمق تاريخي على مستوى المرجعية. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ المعاصر التي يتربع فيها مرجع عربي على مسند المرجعية العليا للشيعة. ولا تقتصر اهمية هذه المرحلة التاريخية على تولّي آية الله الحكيم لمقام المرجعية فيها، بل ان ما يستحق الدراسة والتحليل هو عودة الطابع السياسي لحوزة النجف وتأثيرها في مجريات الوقائع والاحداث.

أ ـ المشاركة الفاعلة للشيعة العرب في حوزة النجف

عموماً لا ينسجم مبدأ التحليل العنصري والقومي مع الأساس الديني والعلمي

لقضايا المرجعية. والذين يعيشون أجواء الحوزات العلمية من الداخل يدركون ان طبيعة المرجعية سواء كانت في قم او في النجف تسمو على الاعتبارات القومية والعنصرية. مع ذلک يحدث أحياناً أن تتدخل عوامل خارجية فيكون لها تأثير ولو محدود على قضايا المرجعية فتلقي عليها بظلال قومية ومناطقية. وفي غضون المائة عام الماضية ظلّت المرجعية عصيّة عن التأثر بمثل هذه الاعتبارات، واذا كانت المرجعية قد أرخت زمامها لآية الله الحكيم، فمن المؤكد أن أحد أهم الأسباب الداعية الى ذلک هو مكانته العلمية المرموقة ومؤلفاته القيمة وبالذات كتابه الشهير (مستمسک العروة الوثقى) الذي أمر بقيمته العلمية الوسط العلمي الحوزوي عربياً كان أم أعجمياً. وهذا القضية تنطبق على آية الله السيد الخوئي الذي يقرّ الجميع بتفوقه العلمي.

ولكننا لا نغفل حقيقة ان النجف في تلک الأيام كانت تشكل خليطاً من الطلاب العرب والأعاجم، ولما كانت تلک المرحلة الزمنية شهدت الكثير من التوتر القومي والوطني، كان من الطبيعي ان يتأثر الوسط الحوزوي بهذه التخندقات، كاستجابة غزيزية لتحولات البيئة السياسية والاجتماعية العامة. ومن هذه الزاوية سوف نواصل بحث وتحليل هذه المسألة.

فلا شک ان الوضع السائد في حوزة النجف هو هيمنة الطلاب الايرانيين، لا بمعنى أن العرب فيها غير حاضرين على المستويات العليا، كيف وقد أشرنا فيما سبق الى وجود الكثير من العلماء من ذوي الاصول العربية خلال القرن الثالث عشر الهجري، وقد تضاعفت أعداد هؤلاء في القرن الرابع عشر، حتى ان أبرز

تلاميذ النائيني كانوا من العرب، ناهيک عن آل كاشف الغطاء والكثير من الكتاب العرب العراقيين مثل أسد حيدر ومحمد رضا الشبيبي والشيخ محمد السماوي وآخرين. ولعل اكبر شاهد على ذلک هو قدرة النجف على ابداع مدرسة أدبية خاصة في مجال الشعر أفرزت شعراء كباراً يأتي في مقدمتهم شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري. كما ان الثقافة العربية فرضت نفسها على أجواء النجف العلمية والأدبية في هذه المرحلة، كما يبدو ذلک جلياً في كتب السيرة التي صدرت في تلک الأيام نظير كتاب (هكذا عرفتهم) لجعفر الخليلي وكتاب (شعراء الغريّ) للخاقاني.

ان عروبة الحوزة، أو بتعبير أدق الحضور العربي والعراقي في المعترک العلمي والأدبي فيها قد شق طريقه منذ أيام زعامة المرحوم الاصفهاني للحوزة النجفية. وأحد الأمثلة على دعمه لهكذا توجه، هو تأييده القويّ لمشروع تأسيس (جمعية منتدى النشر) برئاسة الشيخ محمد رضا المظفر، وحرصه البالغ على استمرار المشروع.[1]

ولا شک بأن هذه الجمعية شكلت ـ بالقائمين عليها وبنوع اهتماماتها ـ[2] أحد أبرز المراكز العلمية والثقافية التي أسهمت في إضفاء طابع عربي على الحوزة في النجف، علماً أن رئيسها المظفر كان أحد أعضاء المجمع العلمي العراقي في بغداد.

---

(۱) الخليلي : ۲۳/۲
(۲) الخليلي : ۲٥/۲ .

إلى ذلك، فإن ترشّح آية الله الحكيم كمرجع عربي، ومساعيه لاجتذاب الطلاب العرب الى الحوزة غيّر معادلة التوازن في النجف لصالح العرب وحدّ من الهيمنة الايرانية عليها، مما أسهم في تشكيل انطباع جديد عن المرجعية وهويتها. ان وفاة آية الله النائيني وهو مرجع ايراني وحرص بعض وجهاء النجف على ترشيح آية الله الحكيم دليل واضح على وجود توجه لتعريب المرجعية في النجف. عدا ذلك، فإن الحوزة لم تكن تخلو قبل ذلك من العلماء أو المراجع العرب، لكن وجود الايرانيين يغطي عليهم.

أما البعد الآخر لعروبة المرجعية، فهو أنشطة آية الله الحكيم في المجال السياسي وتواصله مع العشائر العراقية. ان الاستعانة بالعشائر في التأثير على الواقع السياسي في العراق، كان له دور رئيس في ظهور الجانب العربي من التشيع في العراق، وذلك بعد عقود من انطلاق ثورة العشرين.

مع ذلك، لا ينبغي تجاهل حقيقة أن آية الله الحكيم كان مدعوماً من لفيف من الطلبة الايرانيين، وبالمقابل كانت بعض الأسر العربية من البيوتات العلمية في النجف الأشرف لا تنسجم معه في المواقف والرؤى، فيما سعت بعض البيوت العلمية في النجف الى اجتذاب الطلبة العرب، في اجراء يمكن عدّه تضعيفاً لآية الله الحكيم الذي أبقى على الايرانيين في ادارة الحوزة. ولكن بنظرة اجمالية كانت الحوزة في النجف تتحرك باتجاه الاكتساء بوشاح عربي.

ثمة تفسير آخر للطابع العروبي الذي طغى نسبياً على هوية النجف آنذاك، وذلك أن أعداداً قليلة من العرب المشتغلين بالزراعة وتربية المواشي كانوا

يقصدون النجف بغية تحصيل العلم وذلک بسبب عدم وجود راتب شهري للطلبة يعينهم على تدبير المعاش، ولكن تثبيت الراتب إبان مرجعية آية الله البروجردي أدى الى تحسين الوضع المعيشي للطلاب ومن ثم تزايد إقبال الطلاب العرب على الدراسة الحوزوية في النجف. والواقع، ان تغير هوية النجف من أعجمية الى عربية، لم يحصل بين عشية وضحاها، بل هي عملية تدريجية بطيئة للغاية، ذلك ان معظم الدروس الحوزوية كانت تتداول في حلقات تحكمها اللغة الفارسية، حتى ان الكثير من الطلبة العرب كانوا مضطرين الى تعلّم الفارسية لكي يتاح لهم الاشتراک في تلک الحلقات. ومن هنا فأن النفس الايراني ظلّ قائماً بقوة حتى في زمن مرجعية آية الله الحكيم الذي كان شخصية عربية، ولكن معظم موظفي مكتبه كانوا يحملون ألقاباً ايرانية. كما ان العديد من وكلائه كانوا من الايرانيين، حتى قيل أن زهاء ألف شخص ايراني حصلوا على إجازات ووكالات شرعية من السيد الحكيم.

ويبقى هذا السؤال ماثلاً نصب أعين الباحثين : لماذا أصبحت حوزة النجف ذات طابع ايراني الى هذا الحدّ ؟ والجواب يرتكز على عدة نقاط

الأولى انه على مدى فترة طويلة من الزمن هيمن الايرانيون على المرجعية في النجف منذ زمان الشيخ الأنصاري مما فتح الأبواب كلّها بوجه الايرانيين لتعزيز مكانتهم فيها.

الثانية ان الايرانيين كانوا لا يأتون الى النجف إلا لأغراض الدراسة والتحصيل، وهم بالتالي أكثر من العرب الذين يقصدون أو يتواجدون في النجف

لأغراض شتى.

والنقطة الثالثة : ان العراقيين ـ بطبعهم ـ أقل ميلاً واهتماماً بموضوع الدراسة والتحصيل.

مع هذا كلّه، برز في النجف وفي هذه المرحلة ؛ بالذات علماء كبار مثل الشيخ حسين الحلي الذي يعدّ من أبرز تلامذة النائيني وكان يلقي دروسه أحياناً باللغة الفارسية، والسرّ في ذلك أنه تلقى دروسه بالفارسية، فيسهل عليه إلقاؤها بنفس اللغة، والأهم من ذلك أن العديد من طلابه كانوا ايرانيين، ومن بينهم آية الله السيستاني والشيخ حسن سعيد الطهراني والسيد مهدي الخلخالي.

في غضون ذلك، كان السيد الخوئي ـ وهو تركي الأصل ـ يلقي دروسه بالعربية، في الوقت الذي كان آية الله السيستاني يدرس طلابه باللغة الفارسية التي عدل عنها الى العربية قبل تولي المرجعية بفترة.

يقال أنّ الطلبة الأفغان كانوا يلقون معاملة غير طيبة في حوزة النجف ويعطى لهم نصف الراتب الشهري الذي يعطى للطلبة العرب، ومن المعروف ان آية الله الخميني عمل على إصلاح هذا الوضع وأمر بالمساواة في دفع الحقوق الشرعية للطلبة الايرانيين والأفغان.[1] قبل ذلك كان الايرانيون متهمين بالتعامل الفوقي مع غير الايرانيين.

وعلى كل حال، فإن اتصاف الحوزة النجفية بالطابع العربي كان أمراً مشهوداً أيام مرجعية آية الله الحكيم. ويؤيد ذلك فعاليات حزب الدعوة الذي ضمّ بين

(١) السامي ، عشرون سنة تاريخ ....:٢٧٥ .

جنبيه أيضاً طلاباً من شيعة السعودية ولبنان. ولقد أمر آية الله الحكيم بفتح الدورات العلمية عام ١٩٦٧ م، وكان جميع طلاب الدورة الأولى لذلك العام من العراقيين. أطلق على هذه الدورات اسم (دورة العلوم الدينية للإمام الحكيم) ومقرّها في مسجد الهندي.[١]

ب ـ السياسة الطائفية في العراق المعاصر

لدي الحديث عن الطائفية في العراق يقفز الى الأذهان مباشرة موضع الخلاف بين السنة والشيعة في وسط العراق وجنوبه، بينما يأخذ هذا الحديث بعداً آخر في مناطق شمال العراق حيث الحديث عن الاكراد والمسيحيين وباقي الطوائف.

يعود النزاع بين السنة والشيعة في العراق الى أيام الدولة العثمانية، حيث عملت الأخيرة على كبح جماح التشيع في العراق. ولكن هذه السياسة استمرت بل تفاقمت أيام العهد الملكي في العراق.

معروف ان عبد الكريم قاسم تزعم سنة ١٩٥٨ م ثورة ضد الحكم الملكي بمعية مجموعة من زملائه الضباط، وعد فترة نشب خلاف بينه وبين رفيقه في الثورة عبد السلام عارف حول موضوع الوحدة مع مصر، فقام الأول بعزل الثاني وتجميد دوره، وخلال الأعوام اللاحقة قويت شوكة الشيوعيين لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من السيطرة على الميدان السياسي.

في غضون ذلك اشتبك عبد الكريم قاسم مع الأكراد وتحولت الحركة الكردية بزعامة الملا مصطفى البارزاني الى عنصر أساس في المعادلة السياسية

---

(١) شبر، حسن: ٥٤\٢.

العراقية. وقد تحالف البعثيون وبعض القوى الاخرى ضد عبد الكريم قاسم، وبدأ هؤلاء بالتقرب من عارف.

قلنا ان الشيوعيين اكتسبوا خلال هذه الفترة قدرة كبيرة، لكنه عجزوا عن التحكم بأحداث الساحة العراقية نتيجة تمسك القوى السنية العربية بمقاليد الأمور الاساسية من مناصب عليا في الجيش والدولة والمجتمع. وكان الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي حينها شخص يدعى عادل سلام وهو من أهالي النجف، وينتمي الى اسرة من السادة واسمه الحقيقي سيد حسين الرضوي. وهذا الأمر أدى الى نوع من التقارب بين الشيعي والشيوعي حتى ان بعض الشيعة اعدموا أو قتلوا بتهمة الشيوعية!

من ناحية أخرى، فإن كون والدة عبد الكريم قاسم سيدة شيعية، أوجد نوعاً من التعاطف بين قاسم والشيعة كان من مظاهره فسح المجال ـ ولو جزئياً ـ بوجه الشيعة لدخول المؤسسة العسكرية العراقية التي كانت حتى ذلك الحين حكراً على السنة فقط.

لكن عبد السلام عارف ركب الموجة التي أوجدها البعثيون ضد قاسم وتمكنوا من الانقلاب عليه وقتله. ومع نشوب خلافات بين البعثيين انفسهم استطاع عارف توظيف هذه الأمور لكي تستتبّ له السلطة في العراق. لكنه مع اختلافه مع البعثيين اصطدم بحوزة النجف وأثار مشاكل مع الأكراد بالإضافة الى علاقاته المتوترة مع كل من مصر وسوريا. ولم يقف عند هذا الحد، بل عمل على تأزيم علاقته بايران أيضاً، وكانت المرة الأولى التي تطلق فيها الحكومة العراقية

اسم الخليج العربي على الخليج الفارسي.[١]

وقبل ذلك كان قاسم أثار أزمة مع الكويت بدعوى ان الكويت جزء لا يتجزأ من العراق، مما ساهم في تأزيم علاقات العراق مع محيطه الاقليمي.

ومهما يكن من أمر، فإن انقلاب عام ١٩٥٨ م كان في طريقه لإيجاد ثورة في كل مرافق الحياة السياسية والاجتماعية في العراق، من ذلك ان شرائح عديدة من الطبقات الاجتماعية المسحوقة برزت لها أصوات تطالب بحقوقها، مما مهّد لظهور بعض النزاعات القومية والقبلية والطائفية.

ويمكن القول انه في الفترة التي أعقبت الاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، كان البعثيون ومن سايرهم من القوميين هم القوى المؤثرة في الساحة بشكل مباشر أو غير مباشر، لأن ما سواهم من قوى ـ كالشيوعيين مثلاً ـ لم يمتلكوا القدرة الكافية للتأثير على مجريات الأحداث. والواقع ان حزب البعث أخذت قوته بالتنامي بهدوء، وكأن القدر كتب له أن يكون صانع الأحداث للعقود الآتية.

ويعتبر حزب البعث العراقي فرعاً من حزب البعث السوري، دخل العراق للمرة الاولى سنة ١٩٤٩ م وذلك عن طريق الطلبة السوريين البعثيين الذين كانوا يدرسون في الجامعات العراقية.

ولم يلبث هذا التشكيل الجديد أن يعلن عن وجوده القوي بعد مرور ثلاث سنوات فقط، وبدأت خلاياه تنشط في الجامعات وداخل المؤسسة العسكرية. وكانت قيادته آنذاك بيد فؤاد الركابي (شيعي) حتى عام ١٩٥٩ م حيث دبّر

---

(١) فيب مار : ٢٧٦ .

الحزب محاولة اغتيال لعبد الكريم قاسم لم تحقق مبتغاها ما أدّى الى هرب العديد من أعضاء الحزب أو زجّهم في السجن. وحتى ذلك الوقت كان نسيج الحزب متألفاً من مزيج من الشيعة والسنة، وكان التوجّه العام للحزب هو التوجّه القومي العربي المطعّم بميول اشتراكية.

عام ١٩٦٣ دبّر البعثيون محاولة انقلابية أخرى ضد الحكم القاسمي، ولكن الحظ ابتسم لهم هذه المرة فأسقطوا حكومة قاسم وقتلوا الرجل، وهيمنوا على مقاليد السلطة ولو بشكل مؤقت حيث عاد عبد السلام عارف لينتزع منهم السلطة وبقي فيها حتى قتل عام ١٩٦٦ في حادث مروحية، وخلفه أخوه عبد الرحمن عارف الذي حكم العراق سنتين انتهت بانقلاب البعثيين مرة أخرى وحصولهم على السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨ م.

يقولون ان عبد السلام عارف هو أول من أثار الموضوع الطائفي بشكل شبه علني، اذ ينقل عنه قوله ان نجاح الثورة باستئصال ثلاث فرق الشيعة والكرد والمسيحيين ! وكان يرى أن الدولة الجديدة في العراق يجب أن تكون بيد السنة العرب.[1]

في تلك الأيام، كتب آية الله الخميني رسالة من النجف إلى آية الله الميلاني في إيران يصف فيها الأوضاع في العراق ويقول: مما يوجب القلق هذه الأيام ما صدر عن عارف من رغبته بإعادة أمجاد الأمويين الأمر الذي أثار لغطاً بين السنة والشيعة في العراق، فيما يبدو أن هناك

---

(١) فرهاد ابراهيم ، الطائفية والسياسة في العالم العربي ، ٢٩٣ .

مخططاً لزرع بذور الفتنة والخلاف.[١]

ومنذ ذلك الحين، أخذت تتردد على أسماع الناس مصطلحات مثل (الشعوبية) و(الفارسية) مقرونة بالشيعة والتشيع، وبالتزامن مع مساعي عبد السلام عارف في إثارة الفتنة الطائفية في العراق، والتي واجهت مقاومة من لدن علماء الشيعة وفي مقدمتهم آية الله الحكيم الذي اتخذ إجراءات سياسية مهمة لمجابهة هذا التوجه العارفيّ الخطير.[٢]

عام ١٩٦٤ م وانطلاقاً من رؤيته الطائفية والعنصرية ، شن عبد السلام عارف أولى حملاته على الأكراد، وقام بتنظيم مؤتمر لعلماء السنة في بغداد حضره شيخ الأزهر لكي ينتزع منهم فتوى بقتال الأكراد. وبحسب بعض الوثائق الخاصة بالسافاك الإيراني فإن بعض المسؤولين العراقيين أجروا اتصالات بآية الله الشاهرودي وسائر العلماء كالسيد محمد باقر الصدر والسيد الخميني يطالبونهم فيها بإصدار فتاوى تجيز قتال الأكراد بدعوى أنهم غير مسلمين! وقد امتنع العلماء عن إصدار فتوى بهذا المضمون وكان السيد الشاهرودي في مقدمة الممتنعين.[٣]

هذا، وقد وجهت دعوة للسيد محسن الحكيم للمشاركة في المؤتمر المنعقد لهذا الغرض. إلا ان آية الله الحكيم لم يكتف برفض الدعوة بل اصدر فتوى بتحريم قتال الأكراد لأنهم إخوة لنا في الدين والوطن.[٤]

---

(١) العلم والجهاد ، ١٧٥\٢

(٢) بياني ، ٥٦٥\١

(٣) آية الله العظمى الكلبايكاني نقلاً عن وثائق السافاك ، ٢٦٣\٣ .

(٤) بياني : ٥٨١\١ .

وقد أثرت هذه الفتوى في الكثير من شباب الشيعة الذين فروا من الجيش مع بدء الهجوم على الأكراد.[١]

ومن ثم أصبح لهذه الفتوى أثر تاريخي في التقارب بين الشيعة والأكراد، وهما المكوّنان اللذان يرزحان تحت الهيمنة السنية.

وبمقتل عبد السلام عارف في حادثة جوية، استلم السلطة بدلاً عنه أخوه عبد الرحمن، وكان دمث الطباع فحاول تطبيع العلاقات مع آية الله الحكيم وحوزة النجف، حتى ان السيد الحكيم بعث ذات يوم برسالة إلى عبد الرحمن عارف استخدم فيها تعبير (ولدنا) في مخاطبته، وقد بثّت من الإذاعة عدة مرات، وكان السيد الحكيم كتبها في أعقاب نكسة حزيران وهزيمة العرب أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ م، وكان الرابط بين آية الله الحكيم والحكومة نجله السيد مهدي الحكيم.

لابدّ من الاعتراف بأن آية الله الحكيم أدخل المرجعية مرة أخرى في الشأن السياسي بعد أن كانت منزوية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية إلى حد بعيد، ولم يكن هناك أي اهتمام بالقاعدة الشعبية الشيعية ولا بإمكانية توظيف طاقاتها من خلال العلاقة بين المراجع والمقلّدين في خدمة أهداف سياسية.

لقد اهتم آية الله الحكيم بالشأن السياسي إلى درجة كبيرة وذلك بسبب الأوضاع غير المستقرة في العراق بالإضافة إلى ما يتحلّى به السيّد من خصال ورؤى وآمال. ولكن السيّد عاد وابتعد عن التدخل في الشأن السياسي وبالذات

---

(١) بياني : ٥٨٩٦١.

بعد وصول البعثيين إلى السلطة، ومن بعد ذلك مرض السيد الحكيم، وراحت السلطة تطارد الأشخاص الذين يؤيدونه وفي مقدمتهم ولده السيد مهدي الحكيم الذي اضطر هو وآخرون إلى الهرب خارج العراق.

في هذه الحقبة، تفاقم الحس الطائفي، وبدا أن حزب البعث لا يستسيغ العلاقة الطيبة التي عملت من أجلها حكومة عبد الرحمن عارف مع حوزة النجف، فتحولت مؤسسات الدولة تدريجياً إلى دوائر مغلقة على طائفة معينة هي الطائفة السنية. ولم يبق في قيادة الحزب والدولة إلا أشخاص قلائل من الشيعة ؛ الأمر الذي زاد من حالة التخندق الطائفي في العراق.

لقد وضع حزب البعث نصب عينيه مهمة مواجهة ما يعتبره خطرين أساسيين الأول الأكراد والثاني الشيعة بمركزية النجف. ولقد واصل البعثيون سياستهم العدائية ضد الأكراد والشيعة على السواء. ورأى البعتيون أن إزاحة عقبة النجف من طريقهم يتم عبر النيل من آية الله الحكيم كونه يمثل المرجعية العليا للشيعة، والخطوة المهمة في هذا السياق هي تسفير الإيرانيين الذين يشكلون العمود الفقري للحوزة.

على الصعيد الأول عمد البعثيون إلى إسقاط شخصية آية الله الحكيم في نفوس الناس، وفي الوقت الذي كان موجوداً في بغداد للاحتجاج على الحكومة، دبّرت السلطة لقاءً تلفزيونياً اتهمت فيه السيد مهدي الحكيم بالتجسس، وأشاعت جواً من الخوف والرعب، انعكس مباشرة على موقف الناس من آية الله الحكيم، حيث تخلّوا عنه وتركوه وحيداً في مواجهة السلطة فاضطر إلى العودة إلى

النجف.[١]

مضافاً إلى النكسة النفسية التي خلّفها خروج جمع من الجهلة والانتهازيين وعملاء السلطة في تظاهرات تسيء إلى المرجعية، كما قام بعض الأوباش بالتعدي على تظاهرة قام بها بعض الأفغان والإيرانيين دفاعاً عن آية الله الحكيم.

لم تمض فترة طويلة حتى توفي آية الله الحكيم في ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ المصادف ١١\٦\١٩٧٠ م، فخرج في تشييع جنازته حوالي مليون نسمة كان من بينهم أحمد حسن البكر الذي باغتته الجماهير بهتافاتها المستنكرة لاتهام السيد مهدي الحكيم بالتجسس.[٢]

هذه المواقف شكلت قاعدة لإجراءات السلطة البعثية في مواجهة الشيعة التي بلغت في بعض مراحلها إلى اتهام البعثيين للشيعة ككل بأنهم إيرانيون. واتخذت المواجهة شكل (العربي السني في مواجهة الفارسي الشيعي)، وقد نشرت مئات الكتب التي تحرض ضد الشيعة وتتهمهم تارة بالفارسية وأخرى بالشعوبية من قبيل كتاب (وجاء دور المجوس). هذه الأساليب الدعائية المحرضة ضد الشيعة استمرت إلى ما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران لتصبح رأسمال الوهابية في التأليب على إيران والتشيع، عبر نعت الإيرانيين بالمجوس، وهو النعت الذي تبدل الآن إلى الصفويين.

لقد أبتدأ حزب البعث منذ وصوله السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨م بمضايقة

---

(١) انظر القصة كاملة في : سماي ، عشرون سنة من تاريخ الحوزة ، ٢٨١ .
(٢) شبر ، حسن : ٢\١٦٢ .

الشيعة وتقليم أظافرهم وتقليص نفوذهم في الدولة، ومن ثم أعلن المواجهة مع الشيعة فاستعمل ضدهم سياسات وحشية تمثلت في قمع الشيعة واغتيال رموزهم الدينية وذلك على مدى ثلاثة عقود أسفرت بمجموعها وبتداعياتها عن هذا الوضع المأزوم الذي يعيشه العراق والمنطقة الآن.

كتب السد مرتضى العسكري وهو من قيادات حزب الدعوة واصفاً سياسة البعث ضد الحوزة، يقول سوف يستمر الوضع في النجف على هذا المنوال حتى تستبيح الحكومة العراقية الحوزة العلمية في النجف وتقضي على مظاهر زيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية. والى جوار ذلك سيواصل البعثيون قمع الأكراد ومحاربتهم، لأن الأكراد إذا قويت شوكتهم في العراق فسوف يبادر الشيعة إلى تأييدهم وبالتالي قد تخرج الأمور عن سيطرة السنة، هذا ما تخشاه الحكومة في العراق، لذا فهي تعمل بشكل متزامن على قمع الأكراد وتضعيف مكانة الشيعة... ثم يشير العسكري الذي هاجر إلى إيران سنة ۱۹۷۴ م إلى محاولة صدام استحصال فتوى من علماء الشيعة لتبرير قتال الأكراد وان محاولاته هذه باءت جميعاً بالفشل.[1]

وازدادت الأوضاع وخامة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وانتاب السلطة في بغداد هلع شديد من إمكانية تأثير الثورة على الأوضاع الداخلية في العراق، فبادرت إلى شن الحرب على ايران من أجل خلط الأوراق واستمرت الحرب ثماني سنوات (۱۹۸۰-۱۹۸۸ م)، أعقب ذلك احتلال الكويت ومن ثم

---

(۱) آية الله العظمى الكلبايكاني في وثائق السافاك، ۲۶۸/۳-۲۶۹.

الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م كنتائج ترتبت على حماقات السلطة في العراق ورغبة البعثيين في الذهاب بعيداً في أطماعهم التوسعية.

ج : آية الله الحكيم والحكومة الإيرانية

مع بدء إعلان مرجعية آية الله الحكيم، أبرق محمد رضا بهلوي إلى السيد الحكيم معزّياً إياه برحيل المرجع آية الله البروجردي، وذلك في إيحاء إلى ان الحكومة الإيرانية ترى في السيد الحكيم مرجعاً أعلى للعالم الإسلامي. إثر ذلك، ورغم مجاراة السيد الحكيم لبعض المواقف النهضوية لرجال الدين في إيران ضد سياسات الشاه[١]، إلا أن الحكيم ظلّ يتحرك باحتياط وحذر متحاشياً الاصطدام بالحكومة الإيرانية، وذلك لأمرين : الأول : أنه يدخل في مواجهة شرسة مع الحكومات القومية في العراق ممثلة بالبعثيين.

والثاني تأثره بالرؤية التقليدية السائدة في النجف والتي تنظر إلى سلطة الشاه في إيران على أنها السند والدعامة الوحيدة للتشيع في العالم.[٢]

ولهذا، عندما نفي آية الله الخميني إلى النجف والتقى آية الله الحكيم طلب منه الذهاب إلى إيران لكي يطلع على الأوضاع فيها عن كثب.[٣] ولقد أثار تردد بعض شخصيات البلاط الشاهنشاهي على بيت السيد الحكيم حفيظة علماء الدين الثوريين واستياءهم.

---

(١) انظر جوابه للرسالة التي تطالبه بدعم وتأييد حوزة النجف لأحداث قم . الكبابكاني ١٠ / ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) خاتم يزدي ، ٨١ .

(٣) خاتم يزدي ، ٩٤-٩٥ .

يقول المرحوم خاتم اليزدي ان موقف السيد الحكيم من الشيوعية أثار عليه سخط الشيوعيين[1] الذين كان لهم نفوذ قويّ في الأوساط الشعبية آنذاك حيث سادت الأجواء الثورية في العالم العربي واستقطبت نحوها الشباب العربي وبضمنهم الشيعي، وهذا خطر آخر يخشاه الحكيم.[2]

كان التصور الذي يشغل ذهن آية الله الحكيم هو أن سقوط الشاه يعني سقوط إيران بأيدي الشيوعيين.[3]

ذات مرة، ذهب أحد المقربين من آية الله الخميني واسمه نصر الله الخلخالي إلى آية الله الحكيم وطالبه بأن يبدي اهتماماً بمجزيات الأحداث في إيران، فكان جواب السيد الحكيم أنا عراقي، ولا شأن لي بما يجري في ايران ![4] بالمقابل لم يُبد رجال الدين الثوريين تعاطفاً مع آية الله الحكيم حيال الضغوطات التي تعرض لها. إلا ان مكوث آية الله الخميني في النجف أدى إلى ولادة توجّه جديد في هذه المدينة يعارض الحكومة الإيرانية بقوة، ولكن آية الله الحكيم ظلّ متحفظاً على هذه التوجهات.[5]

وهنا لابدّ من الإشارة إلى مفاد حديث دار بين آية الله الخميني وآية الله

---

(١) أصدر آية الله الحكيم فتواه الشهيرة بحق الشيوعية ونصّها (لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد . أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك) انظر شبر ، حسن ٢٢٨\١١

(٢) يقول آية الله الملكوتي في مذكراته (ص ٥١) بلغ النفوذ الشيوعي في النجف حداً راح البعض يطلق عليها اسم موسكو !

(٣) خاتم يزدي ٩٤

(٤) خاتم يزدي : ٩٥

(٥) خاتم يزدي : ٨٤ .

الحكيم بهذا الصدد.

حيث حاول السيد الخميني بإصرار جرّ السيد الحكيم إلى الدخول في مواجهته مع الشاه، إلا ان هذه المحاولة جوبهت برفض من قبل السيد الحكيم.[1]

وقد جرى هذا الحديث حينما قام آية الله الخميني بزيارة لآية الله الحكيم مساء يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثاني ١٣٨٥ هـ وبحضور حجة الإسلام سمامي الذي يروي مجريات اللقاء كما يلي :... لم نلبث في فناء دار آية الله الحكيم طويلاً حتى ظهر لنا السيّد وتبادل مع السيد الخميني التحية، وبعد برهة قال السيد الخميني سمعت أنك مريض، وأرى من المناسب ان تقصد إيران لغرض العلاج، ولكي تتمكن أيضاً من مراقبة الأوضاع في إيران عن كثب.

فأجابه السيد الحكيم : أنا مطلع على كل شيء.

فبادر السيد الخميني إلى القول لا أظن ذلك، إذ لو كنت كذلك لما قصّرت في التعاطي مع الوقائع الأخيرة في ايران،

السيد الحكيم قمت بما هو وظيفتي الشرعية، على أنك لست خبيراً بالأوضاع السياسية للعالم، ثمة أناس انتهازيون يثيرون هذه المشاكل من اجل مصالح خاصة، وينبغي ان نكون حذرين ومتيقظين جداً.

السيد الخميني : لعلّك لا تدري بان أمريكا وبريطانيا تسعيان إلى القضاء على الدول الإسلامية، وقد خططا للشروع بإيران. فهم ينهبون جميع خيراتها ويمتصون دماء هذه الأمة، نعم، ينبغي علينا الحذر واليقظة، وقد انتفضنا من أجل

---

(١) محتشمي ، المذكرات : ٢٨٧-٢٨٩ .

ذلك، واعلم بأن محمد رضا بهلوي لا يؤمن بالإسلام أصلاً.

السيد الحكيم : نعم، ما تتفضل به صحيح، ولكن طريق مقاومة ذلك ليس ما هو تقوم به، لأننا لا نملك القوة والسلاح الكافيين، وليس لدينا إلا هؤلاء الناس، وقلوبهم مع الريح، لدينا تجارب من ثورة العشرين، ونعلم كيف تعامل الانجليز معنا، وما الذي ستؤول إليه الثورة. يجب أن نتحرك بحيطة وحذر، لأن أدنى غفلة منا يمكن أن تؤدي إلي إذلال المسمين أو إبادتهم، وأرى نفسي مسؤولاً عن ذلك، وقد حققنا في بعض القضايا، فلم نجدها كما تبيّن وتقول !

السيد الخميني : وانا بدوري لم أقدم علي ما أقدمت عليه من دون فحص وتثبّت ولديّ وثائق دامغة.

السيد الحكيم : هل أعددت جواباً لله علي هذه الدماء ؟

السيد الخميني : لماذا إذن نهض الإمام الحسين عليه السلام واستشهد هو ونخبة من أصحابه، أليس من أجل حفظ الإسلام ؟ فهل نعترض عليه بما تقول؟

في هذه اللحظة بان الغضب علي وجه آية الله الحكيم وقال بلهجة حادة أيها السيّد ! هل تقارن نفسك بشخصية الإمام الحسين ؟ الإمام الحسين عليه السلام إمام مفترض الطاعة وهو عالم ومأمور من قبل الله سبحانه وتعالى، ثم لماذا لا تستشهد بموقف الإمام الحسن عليه السلام، كلّما أردت أن تقوم بعمل أو تريق دماً تتشبث بالإمام الحسين عليه السلام. إن إراقة قطرة دم واحدة لإنسان بريء فيها مسؤولية عظيمة أمام الله سبحانه وتعالي... وخيّم الصمت والسكون علي جوّ اللقاء، ولم يتحدث السيد الخميني بعدها، ومرت لحظات نهض بعدها

السيد الخميني من مكانه ليغادر وشيّعه السيد الحكيم إلى الباب.

استغرق هذا اللقاء الساخن حوالي عشرين دقيقة فقط وخلال هذا الوقت حضر أيضاً السيد يوسف الحكيم نجل الإمام الحكيم الأكبر وبعض من أولاد السيد الحكيم وحاشيته.[١]

من ناحية أخرى، كان السيد الحكيم ينوء بضغوطات الحكومة الطائفية في العراق والتي كانت تتسلّط على أكتاف العراقيين وحوزة النجف، خاصة بعد مجيء البعثيين الأمر الذي جعل آية الله الحكيم يفكر بأنه غير قادر على القتال على جبهتين.[٢] وان الأفضل أن يكتفي بالتأييد القلبي للنهضة الإصلاحية وان كانت لا تجدي عملياً، كما أنها مرفوضة من قبل الطلاب الإيرانيين وبعض العراقيين من أصحاب النزعة الثورية. علماً بأن الطلبة الإيرانيين المساندين لتوجه السيد الخميني كانوا يشكّلون أقلية في النجف، بحيث انه بعد وفاة آية الله الحكيم توزعت الحوزة على مرجعية السيد الخوئي والسيد الشاهرودي، ولم تكن للسيد الخميني حصة تذكر، حيث ان حوزة النجف لم تتعاطف أصلاً مع التوجهات الثورية لآية الله الخميني.[٣]

وقد ورد في بعض التقارير فيما يتعلق بمواقف آية الله الحكيم المناوئة للسلطة البعثية، أن المرحوم السيد مصطفى الخميني قصد بيت الإمام الحكيم وهمس في أذنه قائلاً ان أسلوبك هذا في المعارضة ينبغي أن يتبدل، لأنه

---

(١) نهاية اللقاء حسب مذكرات السيد السامي الموجودة في الموقع الالكتروني: WWW.HISTORYLIB.COM

(٢) خاتم يزدي : ١٨٨

(٣) شبر ، حسن : ٢\٤٤ .

بشكله الحالي يصبّ في صالح الحكومة الإيرانية، وهذا غير مقبول.[1]

تسفير الإيرانيين من العراق

قلنا ان المشاعر الطائفية في العراق تأججت أكثر فأكثر خلال الحقبة البعثية، وزاد الطين بلة ان النزاع الشيعي ـ السني في العراق اكتسب لوناً آخر هو النزاع بين العرب والفرس. ثم ان النظام العالمي الجديد حينها جعل من العراق ممثلاً عن روسيا، وإيران ممثلة عن أمريكا في الحروب والمنازعات التي تحصل في المنطقة. أضف إلي ذلك الأطماع التوسعية لدى البعثيين باحتلال جزء من أراضي إيران ما أثار موجة من الخلافات الواسعة والعميقة والتي راحت تتشكل كل يوم بزيّ جديد ؛ فتارة هي نزاع قومي وأخرى مذهبي وثالثة من اجل قطعة أرض.

وأحد معالم هذا النزاع، أو قل النقطة التي يمكن ان يستفيد منها البعثيون في إظهار مقدرتهم هي العمل على طرد الإيرانيين المستوطنين في العراق أو الإيرانيين المستعربين الذين لم يحصلوا بعد على الجنسية العراقية.

وبغضّ النظر عما سلف، ثمة تحليل أعمق لعمليات التهجير هذه، ذلك ان حزب البعث كان يهدف من هذا الإجراء إلى تقويض أركان الحوزة العلمية في النجف والتي تشكل كما قلنا آنفاً أحد الخطرين الرئيسيين الذين يواجهان مستقبل البعث (بالإضافة إلى الخطر الثاني وهم الأكراد).

---

(١) آية الله الكلبايكاني في وثائق السافاك : ٢/٣٠٥ .

ولما كان الإيرانيون يشكلون القاعدة الأكبر لهذه الحوزة، فإن تسفير أعداد هائلة منهم، يؤدي إلى تضعيف الحوزة وإمكانية السيطرة على موضوع المرجعية فيها.

كان آية الله الحكيم في زيارة الأربعين بكربلاء المقدسة عندما بلغه خبر تسفير الدفعة الأولى من الإيرانيين عام ١٩٦٩ م، فكأن السلطة استغلّت غياب آية الله الحكيم عن النجف لتقدم على هذا الإجراء. ولم يلبث السيد الحكيم أن قفل راجعاً إلى النجف مما تسبّب في هدوء نسبي للأوضاع وأفرج عن المعتقلين.[1] وفي ذلك الوقت أثيرت قضية أخرى هي المعاملة السيئة للزوار الإيرانيين، وقد بادرت الحكومة الإيرانية التي كانت على خلاف مع حكومة العراق إلى نشر هذه الأخبار.[2]

لم تكن مواقف علماء قم حيال هذه الأحداث موحدة، وبالذات آية الله الكلبايكاني الذي يجيل النظر كثيراً في هذا الموضوع الحساس خشية ان تستثمر

---

(١) سمامي ، عشرون سنة من تاريخ الحوزة : ٤٧٩-٤٨١

(٢) في غضون ذلك بعث السيد محمد الشيرازي الذي كان يقيم في كربلاء برسالة إلى المراجع في إيران كذّب فيها الأخبار المنشورة في وسائل الإعلام الإيرانية ، وقال ان علماء العراق يتباحثون الآن مع الحكومة العراقية لأجل تجاوز الخلافات على أسس إسلامية وان حكومة العراق تستجيب (انظر آية الله الكلبايكاني في وثائق السافاك ، ١٨٢\٢).

وبعد أيام ذكر شهود عيان أنهم شاهدوا المعاملة السيئة بحق الزوار الإيرانيين ، وبالتالي فالأخبار صحيحة! وورد في الصفحة الأخيرة من التقرير ان تدخل آية الله الحكيم أسفر عن ترك الزوار وشأنهم . إلا أن السلطة في العراق واصلت سياساتها التعسفية تجاه الإيرانيين المقيمين في العراق ولكن علماء إيران في ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى هذه التقارير نظرة شك وريبة ، بتصور أنها من تدبير نظام الشاه لغرض الاستفادة من العلماء في النزاع بين الحكومتين ولكن الوقائع اللاحقة أثبتت وقوع هذه الأعمال بالفعل بغض النظر عن هدف الشاه من نشرها .

حكومة الشاه تداعياته لمصلحتها، فيما كان لآخرين موقف معترض عبّروا عنه من خلال برقيات أرسلوها إلى آية الله الحكيم.

وعقيب وفاة السيد محسن الحكيم، بادر البعثيون إلى معاودة عمليات التسفير، وذلك قبل ان تظهر للملأ مرجعية قوية جديدة. وقد توجّت عمليات التسفير هذه عقوداً من الجدل السياسي حول وضعية الإيرانيين المقيمين في العراق، والذين امتنعت الحكومات العراقية عن منحهم الجنسية العراقية حتى لو استوطنوا العراق لعدة أجيال.

بدأت حملات التسفير عل نطاق واسع في شتاء ١٩٧١ م وعلى نحو صاحبه أوضاع مأساوية للغاية، وتنامت بسرعة أعداد (المعاودين) وهو اللقب الذي أطلق في إيران على أفواج المسفرين التي تراكمت على الحدود بين البلدين أو تمّ إسكان بعضهم مؤقتاً في المدن الحدودية الإيرانية. وقد شكّل طلاب الحوزة العلمية في النجف قسماً كبيراً من هذه الكتل البشرية الملقاة على الحدود. والذين لم يمهلوا سوى بضعة أيام لترتيب أوضاعهم قبل مغادرة البلد، وإلا فسيكون من الممكن اعتقالهم من أي مكان ورميهم على الحدود الإيرانية دون سابق إنذار.

أدى هذا التطور إلى نوع من المواجهة بين مراجع التقليد في ايران والنجف من جهة وبين الحكومة العراقية من جهة اخرى، وقد شمل هذا التحول في المواقف بعض القوى الثورية التي أعادت النظر في علاقاتها مع الحكومة العراقية التي كانت ترفع لواء الدفاع عن القوى الثورية المضطهدة. وقد أعلن الإمام الخميني احتجاجه على إجراءات السلطة العراقية عبر الخطب والرسائل

والبيانات الصادرة بهذا الشأن.[١] ويقال ان الإمام بعث بجوازه لأجل الحصول على تأشيرة خروج من العراق أسوة بباقي الناس الذين شملهم هذا الإجراء التعسفي ما حدا بالسلطة إلى إيقاف عمليات التسفير ولو مؤقتاً.[٢]

أما في داخل إيران، فلقد كانت حملات الاحتجاج ضدّ الحكومة العراقية أكثر حدّة وصراحة. ففي بيان صادر عن آية الله صدوقي وصف الحكومة العراقية بـ (الذئاب البعثية) التي شرّدت العلماء الأعلام والمواطنين الإيرانيين المقيمين في الأماكن المقدسة.[٣]

ويدعي السيد خاتم اليزدي ان النظام العراقي استطاع كسب موافقة آية الله الخوئي على إجراءات التسفير. والظاهر أن الحكومة البعثية وصلت إلى مبتغاها هذا عبر الحيلة والخدع.[٤]

ان معظم المسفرين كانوا من أهالي كربلاء والنجف والكاظمية وبالتالي فإن حصة الطلبة الإيرانيين بينهم كانت كبيرة جداً. ولقد تمّ هذا العمل بقسوة بالغة ودون تمييز بين طالب العلم وغيره.[٥]

وعادت فصول قصة التهجير من جديد عام ١٩٧٥ م واستهدفت هذه المرة

---

(١) اقرأ النص الكامل لها في أحمدي، ص ١٠٦-١٦٦ حث أشيد بهذا الموقف من الإمام واعتبر دليلاً على وطنيته وعدم سماحه للأجانب باستغلال الخلاف بينه وبين حكومة بلده (آية الله الكلبايكاني في وثائق السافاك، ٢٥٧\١٢).

(٢) انظر: مذكرات آل إسحق (طهران، المركز الوثائقي، ٢٠٠٦، ص ١٤٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة بهذا الشأن

(٣) انظر: الشهيد آية الله الحاج الشيخ محمد صدوقي في وثائق السافاك، ص ٢٩

(٤) خاتم يزدي ١٠٨، ولمزيد من البيان: خاطرات آل اسحق ١٨٧-١٨٨.

(٥) انظر: محتشمي، المذكرات السياسية: ١٢\١٥٠-١٥٤.

العلماء والمجتهدين من الطراز الثاني، وبعض هؤلاء كآية الله التبريزي[1] أصبح لاحقاً من مراجع التقليد الكبار في قم، واستمرت عمليات التسفير والتهجير هذه إلى أيام الثورة الإسلامية في إيران وما بعدها.

وفيما يخصّ الغالبية من هؤلاء المسفّرين لابدّ من الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن الكثير من هؤلاء ليست لديهم جنسية عراقية، وثمة دلائل على هويتهم الإيرانية. والكثير من هؤلاء لا يجيدون الفارسية ويتحدثون باللغة العربية. وفي ظلّ ذلک تدخّل آية الله السيد محمود الشاهرودي لدى القنصلية الإيرانية وكان يعطي الواحد منهم ورقة تأييد لكي يبرزها أمام القنصلية ويتوجه بمجرد وصوله إلى إيران إلى دوائر الجنسية للحصول على الوثائق الرسمية التي تثبت هويته الإيرانية.[2] ان تعامل العراقيين مع الإيرانيين في هذه المرحلة شكّل واحدة من أكثر أنواع التعامل قسوة وظلماً بحق أناس استوطنوا العراق على مدى أجيال وأسهموا بشكل فاعل في بنائه واعماره، وهمالآن يغادرون البلد خالي الوفاض.

تأسيس حزب الدعوة وبروز الشيعة في العراق

مع تنامي القدرة السياسية للشيعة في عهد آية الله الحكيم، وظهور الشيعة كقوة اقتصادية كبيرة، تولّدت في أذهانهم طموحات بأن يكون لهم دور في الحكم. ولم يكن هذا الطموح قريب المنال مع تشتت الشيعة وضعف تجربتهم السياسية وحرمانهم المتعدد الأشكال والصور والذي تواطأت عليه الحكومات

(١) انتقل إلى رحمة الباري أيام ترجمة الكتاب

(٢) سماعي : ٧٤.

المتعاقبة في العـراق، حتـى شـاع فـى العـراق المثـل القائـل (للـسنة الحكـم وللشيعة اللطم).

وفى محاولة فهم لجبران هذا النقص تبلورت بين الأوساط النخبوية الشيعية فكرة تشكيل حزب الدعوة الذى كان يقوده رجال دين متنـورون يغلـب علـيهم طابع التفكير الأممى، وفى مقدمتهم السيد محمد بـاقر الـصدر والـسيد مرتـضى العسكرى والسيد مهدى الحكيم ومحمد صادق القاموسـى والـسيد محمـد بـاقر الحكيم وآخرون.[١]

وجاء تأسيس الحزب بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م بشهور، وقيل قبلها بشهور.[٢]

وقد كان تأسيس الحزب بمعونة من أبناء آية الله الحكيم، السيد مهدى والسيد محمد باقر من تلامذة محمد باقر الصدر مع وجوه بارزة أخرى من بـين رجـال الدين. ففى منزل آية الله الحكيم فـى كـربلاء ـ وبغيابـه طبعـاً ـ اجتمعـت عـدة شخصيات هم محمد باقر الصدر ومحمـد بـاقر الحكـيم ومرتـضى العـسكرى ومحمد مهدى الحكيم وطالب الرفاعى ومحمد صادق القاموسى وعبد الـصاحب دخيل[٣] ومحمد صالح الأديب.[٤]

ومن ثم انخرط فى صفوف الحزب جيل آخر من النخب الحوزوية والجامعية

---

(١) الخرسان ٥٤

(٢) شبر ، حسن : ٢٦٨\١

(٣) من أوائل شهداء حزب الدعوة اعتقل عام ١٩٧١ م ، وانقطعت أخباره سوى ما عرف بأن جسمه أذيب فى حوض التيزاب ، وهو من بنى رولة من فروع قبيلة عنزة ولـه أصول عربية بدوية (شبر / حسن: ٦٧\٢).

(٤) الخرسان : ٦٤ .

منهم محمد بحر العلوم وعدنان البكاء وعبد الهادي الفضلي وحسن شبر ومحمد علي التسخيري وغيرهم. وما لبث الحزب ان كوّن لنفسه قاعدة واسعة في المناطق ذات الغالبية الشيعية (وسط وجنوب العراق).

حين بلغ السيد الحكيم أنباء تشكيل الحزب أبدى معارضته لأن يقترن هذا الحزب بالحوزة. جراء ذلك قرر السيد محمد باقر الصدر الانسحاب من الحزب عام ١٩٦٠ م وكان الصدر من الداعمين لمرجعية آية الله الحكيم وان كان يتلمذ على يد السيد الخوئي.[١]

من بعد ذلك تحول محمد باقر الصدر إلي مرشد روحي للحزب تاركاً مكانه في الحزب إلي السيد مرتضي العسكري الذي انتخب اميناً عاماً له، وتمكن عام ١٩٦٥ م حين افتتاح كلية اصول الدين في بغداد.

يذكر ان السيد محمد باقر الصدر كان يمثل امتداداً لمرجعية آية الله الحكيم، وهذا يفسر اهتمامه بالشأن السياسي، وقد ألّف كتابه الشهير (فلسفتنا) على أساس توصية من آية الله الحكيم وذلك لمواجهة المدّ الشيوعي الذي اكتسح الوسط الشيعي أكثر من اكتساحه للوسط السنّي.[٢]

ولقد أبدى البعثيون اهتماماً بهذا الكتاب وطبعوه باستثناء فصل الاشتراكية لأنه لا يتوافق مع توجهاتهم. ويقال أنه كان هناك خلاف وقتها بين آل الصدر والسيد الخوئي، وقد سعى البعثيون لتعميق هذا الخلاف. وقد نشر وزير المعارف

---

(١) شبر، حسن ١١/٢٩٦-٢٩٧.

(٢) الخرسان: ٩٨.

وقتها عبد الستار الجوارى كتاباً بهذا القصد.

على صعيد حزب الدعوة، لم تكن فكرة الوطنية والانتماء للعراق مطروحة، وذلك ان التوجه السائد هو التوجه الأممي المنادي بوحدة الأمة الإسلامية، مع تأكيد ان حزب الدعوة يسمو فوق الاعتبارات الطائفية. ولهذا كانوا في الحزب يفكرون في فتح فروع له في أفغانستان ودول أخرى.

وقد اختير عبد الهادي الفضلي ليكون ممثل الحزب في السعودية، وهو الآن الممثل المطلق لآية الله الخامنئي فيها.

لكن محمد باقر الصدر كان لديه نزعة عراقية ظاهرة، وكان يفكر بايجاد نوع من الاتحاد بين السنة والشيعة في هذا البلد ؛ الأمر الذي ظهر جلياً في رسائله وبياناته المنشورة.[١]

كان تأسيس دولة اسلامية احد الأهداف المنظورة لحزب الدعوة الإسلامية وقد قرر الشهيد لصدر هذا المطلب من الناحية الفقهية النظرية.[٢]

ينحدر الشهيد الصدر من اسرة معروفة، وهو من خيرة تلامذة السيد الخوئي، وان كان منهمكاً في العمل مع الجهاز المرجعي للسيد الحكيم. وبعد وفاة آية الله الحكيم أيد الصدر مرجعية الخوئي لفترة من الزمن، ولكنه ما لبث ان اصدر رسالته العملية واعلن نفسه مرجعاً أعلم. وهذا ما ادى إلى تعكير الأجواء بين اسرتي الخوئي والصدر.

---

(١) الحائري ، سيد كاظم ، مباحث الأصول ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٥٣ .

(٢) الخرسان : ٩٤ .

أما حزب الدعوة فكان بصدد الترويج لمرجعية السيد الصدر وتشجيع بعض الطلبة الجامعيين على الانخراط في صفوف الحوزة لأجل الانطلاق بنهضة جديدة، غير ان السلطة البعثية احبطت هذه المساعي، وكانت الخطوة الاولى في ذلك الضغط على آية الله الخوئي لقطع رواتب هذا الصنف من الطلاب، وفي الوقت ذاته تلقى آية الله الصدر توصية بمنع الطلاب من دخول التنظيم الحزبي. ومن ثم بدأت حملات الاعتقال في صفوف حزب الدعوة مما عرقل توجه الحزب نحو تعريب الحوزة، علماً ان السيد الصدر أبقى على علاقته بالحزب بصورة خفية. والى ذلك الوقت لم يكن للسيد الصدر صلة برجال الدين الثوريين الإيرانيين، ولم تسجل له مواقف معينة في تأييد خطوات الإمام. ولم يقترب من الحالة الثورية الإيرانية إلا مع بلوغ الأحداث في إيران قمتها وبالتزامن مع تسريع حزب الدعوة لمراحل العمل ضد حكومة البعث، وهذا يؤكد من أسلفناه قبل قليل من ان السيد الصدر كرّس جلّ اهتمامه للتعاطي مع مجريات الأحداث في العراق.

مما لا شك فيه ان تقييم حركة السيد الصدر يجب أن تتم في ضوء التيار الحوزوي الذي حمل على أكتافه مهمة تعريب الأوضاع في الحوزة. كان الشهيد الصدر يعطي دروسه بالعربية تأسياً بآية اله الحكيم الذي ظلّ الوحيد الذي يلقي دروس الخارج باللغة العربية. مضافاً إلى أن حزب الدعوة كان يدعم بقوة مسألة تعريب الحوزة، بقبول احد طلاب النجف بهذا الشأن : إلى ما قبل مرجعية السيد الحكيم والسيد الصدر كانت الهوية العربية لحوزة النجف شبه غائبة.

وكان الطلاب العرب الوافدون إلى الحوزة لا يحملون من الطموح أكثر من رغبتهم في لبس العمامة وتعلّم قراءة المراثي الحسينية والمدائح النبوية. وكان هذا ظاهراً جداً من طريقة ارتدائهم للعمائم، بحيث كنا نعرف من أين جاءوا ولأيّ غرض. إن الطلبة ذوي الأصول العشائرية يأتون إلى النجف ويدخلون فيها دورات قصيرة لتعلم الخطابة ويعودون إلى مناطق سكناهم. إلا ان السيد الحكيم وأولاده كانوا يخططون لما هو أبعد من ذلك، لقد كان هدفهم تكوين جيل من العلماء العراقيين، ولذلك فتحوا مدرسة لهذا الغرض وادخلوا هؤلاء الطلبة في دورات طويلة ومكثفة تتجاوز أغراض الخطابة والوعظ ووفروا لهذا الدورات شروط النجاح والاستمرار، وكان لهم ما يريدون فقد تخرج منها طلاب كثيرون من أهل العلم، وراح الحضور العربي يفرض نفسه بقوة على الساحة النجفية، وان كانوا أقل من الناحية العددية، لكن تأثيرهم كبير لأن الطلاب غير العرب عاكفون على الدرس لعدم قدرتهم على الاختلاط بالمجتمع بسبب حاجز اللغة. ومن العلماء الأفاضل العرب في تلك الفترة الشيخ حسين الحلي والشيخ عباس المظفر وغيرهم.

وكان لحزب الدعوة أيضاً دور فعال في إضفاء الطابع العربي على الحوزة، فالكثير من الطلاب انخرطوا في صفوف الحوزة بتشجيع من هذا الحزب والواقع ان موجة دخول الطلبة العرب والعراقيين إلى الحوزة وان كانت تتم برعاية آية الله الحكيم وإشراف مباشر منه، إلا ان الجهد الميداني المبذول في هذا السياق يقع على عاتق حزب الدعوة، بما يتيح لنا القول ان مهمة تعريب حوزة النجف

ساهم فيها جهتان شخص آية الله الحكيم وحزب الدعوة.

بعد مرور أربع أو خمس سنوات أصبح المشهد السياسي في العراق أكثر سخونة، وقامت السلطة بملاحقة واعتقال العديد من الطلبة الناشطين ومداهمة المدارس التي تحتضن الطلاب المرتبطين بحزب الدعوة بشكل أو آخر. ومن بين تلك المدارس المدرسة الشبّرية التي كانت مركزاً يرتاده الطلبة العراقيون.(١)

ويقال ان المدرسة المذكورة والتي كان يطلق عليها (الدورة) ارتبط اسمها باسم آية الله الحكيم، وكانت تدار من قبل حزب الدعوة.

ثمة شخصية دينية أخرى كانت مواكبة للأحداث في النجف آنذاك ويقول : في أواخر مرجعية السيد الحكيم دخلت الحوزة حقبتها العربية، حيث كانت فارسية قبل ذلك، الأمر الذي كان يخلق حاجزاً نفسياً بين الحوزة والمحيط الاجتماعي...

وكان للمرحوم آية الله الصدر دور فاعل في توجيه الحوزة وجهة عربية. وكان يصر على استقدام الشباب من بين شرائح المجتمع العراقي وتربيتهم حوزوياً لكي يتولوا مهمة إرشاد الناس، وكان افتتاح المدارس العربية خطوة عملية بهذا الاتجاه.(٢)

والتحول الآخر المهم على صعيد الحوزة هو المساعي التي بذلها آية الله الصدر لتجديد مناهج الحوزة بل تجديد الفكر الإسلامي والشيعي على مستوى

---

(١) المددي ٥٠ .

(٢) الحائري ، سيد علي اكبر : ٦٥ .

العراق. وقد كان الشهيد الصدر يمتلك المؤهلات اللازمة لانتشال الحوزة من واقعها الرتيب وتجهيزها بسلاح فكرى جديد، الأمر الذى لم يكن بوسع التقليديين ولا فى نيتهم القيام به. وهذا هو بالضبط ما حدا بالشباب العراقى على الالتفاف حول مرجعية السيد الصدر والتطلع إلى الحوزة والإعراض عن التيارات الإلحادية واليسارية. والحقيقة ان الشهيد الصدر هو الشخصية التي تمكنت من الوقوف بوجه التيارات الماركسية وتوجيه الأوساط الجامعية توجيهاً دينياً ظهرت آثاره في العراق كمرحلة أولى، ثم إن كتابي (فلسفتنا) و(اقتصادنا) طبعا ونشرا في إيران كذلك.وفي هذين الكتابين نجد فكراً أصيلاً ومعمقاً انعكس على مدرسته وتلامذته الذين أسهموا فى تأصيل هذا الفكر وتعميق آثاره، لكن البعض منهم سلك منهجاً متطرفاً بعض الشيء. والمفارقة ان المشهد العراقى الثقافى والسياسى شهد حراكاً من تيارات إسلامية أو يسارية أو بعثية.

وكلما نرى فكراً تلفيقياً من بين هذه التيارات. لكن بعض الشخصيات الدينية اتهمت لاحقاً حركات إسلامية بتبنى أفكار تحريضية ضدّ الحوزة والمرجعية.

وبالنسبة للشهيد الصدر نشير إلى أن عدم مؤازرته لتحركات آية الله الخمينى بقوة حتى قبيل انتصار الثورة، لا يعنى أنه كان بعيداً عنه من الناحية الفكرية أو من ناحية الحرص على التجديد فى الفكر الشيعى، كما لا ننسى أنه يعدّ من أبرز وأول شهداء الثورة الإسلامية، بعد أن آمن السيد الصدر ــ مع إرهاصات الثورة الإيرانية ــ بالإمام الخمينى وبثورته العملاقة، إلى درجة أنه زهد بكل شيء ووقف بوجه الطاغية صدام ولم يُبد أى تنازل للسلطة إلى أن ضحى بنفسه دفاعاً

عن الثورة وقيادتها. في هذه الأثناء فإن بطش حزب البعث وإعدام أعداد غفيرة من أعضاء حزب الدعوة، تسبّب في هروب باقي الأعضاء إلى خارج العراق وبالذات إيران وسوريا. وفي مرحلة من المراحل وقع الاختيار على السيد كاظم الحائري من تلامذة الشهيد الصدر فقيهاً لحزب الدعوة. وكان الحائري قد تتلمذ على آية الله الشاهرودي، وحين صار من أهل الفضل والعلم، عاد ودرس عند السيد محمد باقر الصدر.

ولم تدم العلاقة الحميمة بين الحائري وحزب الدعوة طويلاً، بعد أن توصل الحزب إلى قناعة بعدم إمكانية ربط عجلة الحزب بقرارات شخص ـ حتى لو كان فقيهاً ـ وقرر الحزب أن يوكل البتّ في القضايا الهامة إلى شورى المكتب السياسي، وما لبث بعد ذلك أن أصدر السيد الحائري كتاباً بعنوان (قرار الحذف) تعرض فيه لملابسات عزله عن الحزب. وفيما بعد أستعاض حزب الدعوة عن الحائري، بالسيد محمد حسين فضل الله الذي كان من الدعاة وهو الآن زعيم ديني في لبنان.

وقد عرف حزب الدعوة باتخاذ مواقف مؤيدة لآراء السيد فضل الله ذات الطابع التجديدي المثير للجدل عند البعض.. هذا البعض الذي استمر يثير الإشكالات والشبهات حول علاقة حزب الدعوة بالمرجعية وطبيعة نظرته لها، وكان على أنصار الدعوة أن ينبروا كل مرة لدحض هذه التهم والشبهات.[1]

حينما خرج السيد محمد باقر الحكيم من السجن، وقرر الهرب إلى سوريا،

---

(١) شبر ، حسن : ١٥٣/٢-١٧٣ .

انتدب حزب الدعوة السيد حسن شبر لمفاتحة الحكيم بالمجيء إلى إيران، على اعتبار انه من مؤسسي الحزب وله وجاهة دينية واجتماعية في العراق.[1] وبمجرد وصوله إلى إيران عام ١٩٨٠ م حظي بتقدير واحترام الإمام، الأمر الذي مهّد للإعلان تشكيل المجلس الأعلى في تشرين الأول من عام ١٩٨٢ في طهران، وبحضور ومشاركة عدد من التشكيلات والتنظيمات العراقية مثل حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي، اللذين انشقّا لاحقاً عن المجلس.

وقد أنيطت رئاسة المجلس الأعلى لأربع دورات انتخابية بالسيد محمود الهاشمي أحد أبرز تلامذة الشهيد الصدر، فيما عيّن السيد علي اكبر الحائري رئيساً للمجلس لدورة واحدة فقط وهو أيضاً من طلاب السيد الصدر، إلى إن استقرت رئاسة المجلس في دورته السادسة على السيد محمد باقر الحكيم.

لقد قطع السيد الحكيم على نفسه عهداً بالجهاد ضد نظام صدام، ووفى بعهده هذا على مدى أكثر من عشرين عاماً (١٩٨٠-٢٠٠٢).[2] وفور سقوط النظام عاد إلى النجف، ولم يلبث فيها أكثر من ١٤ أسبوعا حتى اغتيل عند مدخل الحضرة العلوية بعد إمامته لصلاة الجمعة داخل الحضرة واستشهد (رضوان الله عليه).

خلال ذلك، كان حزب الدعوة حاضراً في المجلس الأعلى وان

---

(١) الخرسان ٨٠.

(٢) نقل لنا صديقنا السيد الجعفري عنه (رض) انه عندما جاء إلى إيران طلب من الإمام أن يحدد له تكليفه، إلا إن الإمام فوض إليه اتخاذ القرار بأمر الاستمرار في المعارضة لنظام صدام وكذلك شكل المعارضة إن كانت مسلحة أو لا، فعاهده على أن يواصل الجهاد ضد صدام ما دام حياً.

انفصل عنه في النهاية، ففي الدورة الأخيرة من عمر المجلس، تحرك حزب الدعوة بطريقة أثارت حفيظة بعض رجال الدين العراقيين البارزين، على خلفية الاعتقاد بأن هذا الحزب متأثر بأفكار الإخوان المسلمين، ويعتبر نوعاً من الحركات التجديدية. وعوداً على عقد الخمسينيات، كان هناك بالإضافة إلى حزب الدعوة تشكيل آخر من رجال الدين أطلق على نفسه اسم (جماعة العلماء) الذين بادروا باصدار مجلة (الأضواء) في ذي الحجة من سنة ١٣٧٩ ق.[١]

ولقد أورد شبر أسماء (١٤) شخصية من جماعة العلماء منهم: الشيخ مرتضى آل ياسين والشيخ محمد رضا المظفر والشيخ حسن الجواهري والشيخ محمد جواد آل راضي وآخرون.[٢]

أن كياسة هؤلاء الأشخاص ووجاهتهم جعلتهم محطّ ثقة وتأييد المرجعية العليا آنذاك متمثلة بآية الله الحكيم الذي أوضح في بعض رسائله انه يدعم جميع منشورات هذه الجماعة.[٣]

أولى المواقف السياسية لهذه الجماعة تمثلت في إدانة إقدام الحكومة الإيرانية على الاعتراف بإسرائيل.

---

(١) وهي مجلة تصدر مرة كل أسبوعين ، واستمرت في الصدور ما مجموعه إجمالا أربعة أعوام . وكانت مقالاتها الافتتاحية تكتب تحت عنوان (رسالتنا) وبقلم السيد محمد باقر الصدر الذي كان صغيراً في العمر بالنسبة إلى سائر العلماء، ولهذا لا يذكر مع ذكرهم ، وكان هناك عمود يحمل عنوان (كلمتنا) يحرره السيد محمد حسين فضل الله شبر ، حسن: ١\٢٤٣

(٢) شبر . حسن ١\٢٣٤

(٣) شبر . حسن : ١\٢٣٩ ، من كتاب : الإمام الحكيم السيد محسن : ٧٠ .

مرجعية آية الله الخوئي

بعد وفاة آية الله السيد الحكيم، كان آية الله الشاهرودى من أعمدة الحوزة العلمية بلا شك. لكن مما لا شك فيه أيضاً أنه لم يكن مرجعاً عاماً للشيعة، بل هو واحد من مراجع تلك الحقبة التى تزايدت فيها الضغوط البعثية على الحوزة. فى هذا السياق أبرق آية الله الكلبايكانى من قم إليه شاجباً ممارسات حزب البعث فى تلك البرقية التى يقول فيها : لا شك أن الشعب العراقى المسلم الذى ذاق الأمرين من سياسات البعث متذمر للغاية من هذا النظام، وسوف يقوم هذا الشعب بتأديب هذا النظام ـ الذى لا يفكر إلا بالدمار والخراب والفتنة ـ وينهض من اجل حفظ وصيانة الأماكن المقدسة والمؤسسة الدينية.[1]

وكان السيد الكلبايكانى بصدد إرسال رسالة أخرى إلى رئيس الجمهورية العراقية فى خريف عام ١٩٧٥ م مع شروع موجة جديدة من عمليات التهجير الإيرانيين من العراق ومضايقة الحوزة العلمية، لكن الظاهر ان الحكومة الإيرانية تدخلت للحؤول دون إرسال الرسالة.[2]

وبوفاة آية الله الشاهرودى تثبت الوسادة فى حوزة النجف لآية الله الخوئى، وذلك في ظروف يصفها ـ كما يروى عنه ـ بأنها أشبه بظروف قائد يستلم القيادة من آخر مهزوم !

فى هذه الحقبة توزعت المرجعية على عدة مراجع، ولم تكن مرجعية السيد

---

(١) آية الله العظمى الكلبايكانى فى وثائق السافاك : ٢٦٣/٣ .

(٢) نفس المصدر : ٣٣٢/٣-٣٣٣ .

الخوئي مطلقة، خاصة على مستوى ايران التى برز فيها آية الله الخميني بسبب الأحداث التي رافقت النهضة العلمائية ضد الحكم الشاهنشاهي. لكن هذا لا يعنى أن السيد الخوئي لم يكن له مؤيدون على الساحة الإيرانية خاصة بين أوساط المتدينين على النمط التقليدى الذين ظلوا يحتفظون فى أنفسهم بمكانة خاصة للنجف وحوزتها.

وعلى الرغم من المشاكل القائمة، يمكن القول أنه بالقياس إلى آية الله الحكيم في العراق وآية الله الخميني فى إيران، اختار آية الله الخوئي منهجية تعتمد الحذر والاحتياط إلى أبعد حد، حتى انه لم تكن لديه القدرة على القيام بأى نشاط فى الحقل السياسى.

وإذا أردنا معرفة المواقف السياسية لمرجعية النجف فى هذه الحقبة، نجد أن الوضع كان يختلف من سنة لأخرى. ففي حين اتخذ آية الله الخوئي موقفاً داعماً من تحرك علماء الدين الإيرانيين عام ٦٢-٦٣ م فى قم بحيث صدرت عنه بيانات شديدة اللهجة، وصل فى واحدة منها إلى حدّ تكفير الشاه وسميت بـ(الخطيرة).. نرى أن السيد الخوئي لم يتحمس كثيراً لفعاليات الإمام الخميني في النجف بعد نفي الأخير إليها، ومردّ ذلك إلى الخلافات التقليدية التي تحصل بين بيوتات المراجع والتي يغذّيها ذوو المنافع والمآرب الأخرى.

هذا من الناحية السياسية والاجتماعية، أما من الناحية العلمية والاجتهادية فلا يختلف اثنان أن آية الله الخوئي كان صاحب السبق والريادة في هذا المجال خصوصاً بعد وفاة آية الله الشاهرودي عام ١٣٩٥ ق. والدليل القاطع على ذلك

الزحام الشديد في درسه للبحث الخارج الذي لا يقارن بدروس غيره من المراجع. وهذا الازدحام في درسه ظاهرة فرضت نفسها حوزوياً حتى قبل رحيل آية الله الحكيم، بحيث كان درس السيد الخوئي هو المعوّل عليه في تعيين أيام العطلة والدراسة الحوزوية. وقد استمرت هذه الوضعية من التفوق العلمي حتى بعد مجيء الإمام الخميني منفاه الاختياري في النجف.

يقول الحائري : كان لدرس السيد الخوئي رونق خاص وهو أهم دروس حوزة النجف على الإطلاق. غايتها أن السيد الخوئي كان يعمل بالتقية بأعلى درجاتها، ولا يبدي أي ميل للتدخل في الشؤون السياسية... ولهذا فقد توجهت الأنظار صوب الشهيد الصدر.[١]

خلال تلك الأعوام، كانت علاقة الخوئي بالحكومة ايجابية نوعاً ما. وكان لرجال الدين الثوريين تصور مفاده أن السلطات العراقية دعمت مرجعية السيد الخوئي للحدّ من تأثير مرجعية آية الله الخميني، هذا في حال أصدر (١٤) عالماً من علماء النجف البارزين ومنهم السيد الصدر بياناً أعربوا فيه عن تأييدهم لمرجعية السيد الخوئي.[٢]

ولكن بصورة إجمالية، فإن ممارسات السلطة البعثية أدت إلى تضعيف مرجعية السيد الخوئي بالقياس إلى ما كانت عليه المرجعية في زمان السيد الحكيم. ففيما مضى كان مسؤولو الدولة يأتون من بغداد إلى النجف للقاء آية الله الحكيم والتباحث معه بشأن القضايا العالقة، بينما أنيط هذا الأمر الآن بمحافظ

(١) الحائري : ٧٥

(٢) خاتم يزدي : ٩٨-٩٩ .

النجف، والذي كان يتردد على المراجع وبفواصل زمنية طويلة. في غضون ذلك كانت عمليات التسفير والمضايقة قد قلّصت أعداد الطلاب في النجف إلى مستوى ملحوظ، خاصة بعد الثورة الإسلامية في إيران حيث باتت النجف تخلو من أبنائها يوماً بعد آخر بحيث كان عدد طلابها قبل موجة المضايقات والاعتقالات يربو على ١٢ ألف طالباً ـ حسب الحائري ـ بينما تراجع هذا العدد ووصل إلى اقل من ألف.[١]

طبعاً البعض يشكك في دقّة هذه الأرقام ويرون أن حوزة النجف في أفضل حالاتها لم تحتضن أكثر من ثلاثة آلاف طالب علم.

وتكاد تقتصر انشطة السيّد الخوئي على مستوى علاقته بالدولة على أعداد قائمة بأسماء الطلبة الإيرانيين الذين يشعر بأن بقاؤهم في النجف ضروري لإدامة حياتها العلمية، ويتم إرسال هذه القائمة إلى الجهات المعنية في الحكومة العراقية من اجل تمديد اقاماتهم في العراق، وهو العمل ذاته الذي يقوم به آية الله السيد محمد باقر الصدر من اجل تحصيل موافقة الحكومة على هذا الطلب مع المن والأذى طبعاً. واستمر الوضع على هذا المنوال لسنوات شهدت هدوءاً نسبياً في العلاقات بين الدولة والمرجعية في العراق، تخلّل ذلك بعض المجاملات من قبيل برقية التهنئة والتأييد التي بعث بها الخوئي إلى الرئيس العراقي احمد حسن البكر بمناسبة تأميم النفط عام ١٩٧٢.[٢]

أن الفتور الموجود بين أسرتي الصدر والخوئي كان سبباً وراء قيام كل واحد

---

(١) الحائري ٧٥

(٢) فياض الحسيني : ٩٧ .

منهما بتقديم قائمة مغايرة للقائمة التي يقدمها الآخر، وكانت الحكومة تعزف على وتر الخلاف فتقوم أحيانا بالمصادقة على إحدى القائمتين ورفض الأخرى، وبعد إرسال برقية التهنئة المشار إليها أعلاه تطور الفتور إلى توتر حمل الصدريين على التهجّم على بيت الخوئي والعدول عن تقليده. لكن برقية مماثلة صدرت عن الشهيد الصدر حول مشروع محو الأمية الذي وصفه بالخطوة المباركة في بيان نشرته مجلة (ألف باء) ما أدى إلى تخفيف حدة التوتر في العلاقة مع الدولة. وعلى أي حال، فإن المكر والدسيسة البعثية نجحتا في خلق نوع من التنافس بين الأسرتين استمر حتى أيام هجرة الإمام إلى باريس.

تواجد آية الله الخميني في حوزة النجف للفترة بين ١٩٦٥ــ ١٩٧٨ م وكان اغلب مقلديه في إيران، وأصبح له دور مؤثر في الحوزة بفضل الإمكانيات المادية التي يتمتع بها، لكن هذا الدور لم يرق بالطبع إلى مستوى تأثير السيد الخوئي في النجف.

آنذاك كانت حكومة البعث مهتمة بإنشاء جبهة معارضة للنظام البهلوي في إيران، ولذلك فسحت بعض المجال لمعارضي الشاه للعمل السياسي. مع ذلك فإن آية الله الخميني لم يحسن الظن يوماً بنوايا البعثيين ولم يكن يجاريهم في أي من مخططاتهم. وقد أثبتت الوقائع صحة تكهناته. فبمجرد أن طرأ تحسن في العلاقات بين إيران والعراق بعد اتفاقية ١٩٧٥ م، ومع تنامي موجة الغضب الشعبي ضد الشاه في ايران، أجبرت الحكومة العراقية آية الله الخميني على مغادرة العراق. فيما يتعلق بإيران نفسها لابدّ من الإشارة إلى نقطة مهمة، ففي

خضم الأحداث الساخنة للأعوام ١٩٦٢ـ ١٩٦٥ م حيث انطلقت المعارضة من قم لنظام الشاه وممارساته، كان آية الله الخوئي في مقدمة المراجع الإيرانيين في الدفاع عن هذا التحرك من خلال إصدار بيانات شديدة اللهجة ضد نظام الشاه. ولكن مع حلول العالم ١٩٦٨ ومجيء حكومة البعث إلى السلطة في العراق بدأ الكثيرون بمراجعة مواقفهم المتشددة ضد نظام الشاه، وكأن شعوراً عاماً ساد الأوساط المرجعية حينها بأن الخطر البعثي يحتم عليهم تأجيل المعركة مع الشاه.

ويغذي هذا التبدل في المواقف وجود نوع من التنافس بين الأسر العلمية في النجف، ما خلق تصوراً لدى رجال الدين الثوريين في بدايات الثورة بأن آية الله الخوئي غير مستعد لتأييد أي تحرك علمائي أو نهضة شعبية ضد الشاه.

مع انطلاق الثورة الايرانية، أقدمت السلطة البعثية في العراق على جملة اجراءات تعسفية من عمليات قمع واعتقال لعناصر حزب الدعوة، خشية أن يتكرر في العراق حدث مماثل لما حصل في ايران. وتفاقمت الأحداث إلى درجة أن الأوضاع في النجف الاشرف خيّم عليها صمت رهيب. وطوال الحرب ضدّ إيران لم يتحدث آية الله الخوئي بأيّ حديث ينتقد فيه إيران. يقولون أن وفداً من علماء السنة قصد النجف بعد مرور عام على الحرب وطلب من السيد الخوئي التدخل لإيقاف الحرب تمسكاً بمفاد الآية (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ولكن آية الله الخوئي ردّ على الوفد بأن قرار الحرب لم يصدر عنه حتى يأمر بإيقافها، وانه يفضل عدم التدخل في مثل هذه الأمور. ورغم إبعاد ونفي الكثير من الطلبة والعلماء، بقي في النجف وجوه غير قليلة من

الطلاب والعلماء، كما أن الحكومة لم تكن تريد المجازفة بسمعتها في أوساط العرب الشيعة في المنطقة. استمر السيد الخوئي على هذا الوضع إلى حين وفاته عام ١٩٩٢\٨\٨ م، وقبل ذلك كان قد قام بآخر محاولاته لترتيب أوضاع البيت الشيعي بعد انتفاضة شعبان ١٩٩١ م حيث سقطت المدن الوسطى والجنوبية بأيدي الثوار الشيعة وانهارت اجهزة الأمن والشرطة والخدمات مما اضطر السيد الخوئي إلي التدخل وتأسيس هيئة لتمشية أمور الناس خلال تلك الفترة.[١]

ومع عودة الأوضاع إلى سابق عهدها، بات وضع النجف وخيماً للغاية بعد مقتل الكثير من العلماء، وعاش السيد الخوئي آخر أيام حياته في ضيق شديد نتيجة مضاعفة السلطة لضغوطها عليه وعلى الحوزة حتى توفاه الله فدفن مظلوماً.

البعث وفكرة إيجاد مرجعية عربية

في السنين الأولى لوصول البعث إلى السلطة وتماشياً مع سياسة الحزب العامة المتطلعة إلى القضاء على الحوزة حرص البعثيون على عدم ولادة مشروع مرجعية عربية. ولكن فيما بعد توصلت الحكومة إلى قناعة بأن مرجعية عربية هي أفضل السبل لتقليم أظافر الإيرانيين في الحوزة وجعلها تسير في فلك

---

(١) تشكلت هذه اللجنة من الذوات : السيد محيي الدين الغريفي (توفي النجف) . السيد محمد رضا الموسوى الخلخالي (استشهد) . السيد جعفر بحر العلوم (استشهد) . السيد عز الدين بحر العلوم (استشهد) . السيد محمد رضا الخرسان (حي يرزق) السيد محمد السبزوارى (توفي في قم) . الشيخ محمد رضا شبيب الساعدى (حي يرزق) . السيد محمد تقي الخوئي (استشهد) . والسيد محمد صالح الخرسان الذى انضم اليهم لاحقاً . (انظر : النجف الاشرف / اسهامات في الحضارة . ج ٢ . ص ٣٩٠-٣٩٨) .

السلطة. ولذلك حاول حزب البعث أن يروّج لمرجع عربي في مقابل المرجع الفارسي، وكان من بين الأهداف المهمة للبعث ان تحوّل الحوزة إلى مؤسسة عراقية. وهذه النقطة هي التي أشار إليها لاحقاً السيد السيستاني في لقاء أجري معه وأكد فيه أن السلطة لم تنجح في مسعاها هذا.[١] والواقع ان حزب البعث ظلّ عاجزاً عن إدراك حقيقة أن المرجعية بطبيعة تكوينها تأبى أن تتلون بألوان عرقية وعنصرية، ذلك إن أصل مشروعيتها يُستمد من جذور وأسس دينية ومذهبية، وواضح إن الدين والمذهب لا يمكن أن يحتكر من قبل قومية أو عرق معين. وهذا هو الخطأ الاستراتيجي الفاضح الذي ارتكبه البعثيون في تقييم واقع الحوزة.

بالطبع، لم يقتصر هدف البعثيين على تعريب المرجعية، بل كانوا يتطلعون إلى السيطرة على مسار الحوزة وظاهرة التقليد والمقلدين. وحتى ذلك الوقت كانت الحوزة – رغم الخلافات العرقية والقومية ـ قائمة على مبدأ التفاضل في العلم والتقوى يقودها آية الله الخوئي الذي يتمتع بمكانة مرموقة في الأوساط العلمية، وان كان يتعرض لانتقادات كثيرة من أصحاب النزعة الثورية.

وقد مرّ أنه أواخر عقد الخمسينيات من القرن الماضي نضج الوعي السياسي لدى العرب الشيعة في العراق بحيث راحوا يتطلعون إلى استرجاع مكانتهم الطبيعية في المجتمع والدولة، وأوجدوا حزب الدعوة كتشكيل سياسي يعينهم على تحقيق هذا الهدف.. وطبعاً لم يكن الدعاة يعوّلون كثيراً على مرجعية آية الله

---

(١) السيستاني : ٧٥ .

الخوئي في تحقيق طموحاتهم، وذلك نظراً للمنهج التقليدي والذي اعتمدته مرجعية السيد الخوئي في التعاطي مع الشأن السياسي والاجتماعي العام، الذي لا ينسجم مع التوجه التجديدي لهذه النخبة من الرجال الذين سرعان ما اصطدموا بالبعثيين الذين كانوا يقدمون للحوزة دعماً مالياً مقابل فرض الصمت على الحوزة.

وقد ألمحنا آنفاً أن السيد الخوئي بعث برسالة تهنئة إلى احمد حسن البكر على خلفية اتخاذ قرار التأميم، وهذا مما ثار استياء حزب الدعوة، رغم أن السيد محمد باقر الصدر أرسل ببرقية مماثلة إلى الحكومة مهنئاً إياها على إصدار قرار محو الأمية، فيما يمكن أن يعدّ نوعاً ن المجاملة الظاهرية للحكومة لكفّ شرورها عن الحوزة والمرجعية، وإلا فان الشهيد الصدر اتخذ أقوى المواقف المعارضة للسلطة البعثية إبان انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وقدم روحه دفاعاً عن الثورة وقائدها الإمام الخميني.

الهدف أو الطموح الآخر الذي كان يتطلع إليه البعثيون من تعريب المرجعية هو تعبيد الطريق امام وصول شخص موال للسلطة إلى مقام المرجعية، وقد ذهبوا بادئ ذي بدء إلى آية الله السيد محمد علي الحمامي وأبلغوه استعدادهم لتبني مرجعيته والترويج لهذه المرجعية بشكل خفي، لكنه رفض العرض، رغم أنهم أجبروه على المشاركة في احد المؤتمرات العربية لتأييد السلطة، الأمر الذي كان كافياً لاتهامه بأنه من أعوان السلطة، في حين اشتهر الشيخ علي كاشف الغطاء بموالاته للحكومة.

بعد اليأس من الحمامي، توجهت السلطة إلى آية الله السيد حسين بحر العلوم، وقام الرجل بطبع رسالة عملية، إلا أنه أعرض عن الاستمرار بموضوع المرجعية.

في غضون ذلك، كان هناك عالم نجفيّ آخر يستقطب الاهتمام ألا وهو السيد محمد الصدر من تلامذة السيد محمد باقر الصدر. ومعروف عن آل الصدر منذ اختيارهم النجف موطناً انهم أسرة دينية متواضعة همّها كسب العلم والتقوى، ولهذا لم تكن لهم نجاحات تذكر في حقل السياسة. ولكن بعد وفاة آية الله الحكيم بفترة، أقدم السيد محمد باقر الصدر على طبع رسالة عملية معلناً بذلك تصدّيه للمرجعية وكان قبل ذلك من مؤيدي مرجعية السيد الخوئي التي ظلّت مرجعيته مهيمنة على الأوساط العلمية والشعبية، ولم يتفاعل مع مرجعية الصدر سوى شريحة محدودة من رجال الدين المتنورين الذي ذهبوا بعيداً فأعلنوا إن الصدر أعلم من الخوئي. وتعدّ هذه أول مرجعية لآل الصدر والتي انتهت باستشهاده عام ١٩٨٠ م. بالطبع برز من هذه الأسرة علماء كبار طاولوا المرجعية بنحو وآخر منهم السيد إسماعيل الصدر والسيد صدر الدين الصدر.

فيما بعد، جاء دور مرجعية السيد محمد الصدر الذي عرف بتقواه وطهارته. وادعى أشخاص بأنه الأعلم. ويدلّ على اعتقاده الاعلمية طبعه لرسالة عملية على ضوء العرف السائد في الحوزة. وبالتالي بات السيد محمد الصدر في وضع يغري السلطة البعثية بالتحرك عليه لتنفيذ المخطط الذي ظلّ يدور في رأسها منذ زمن. ويروي شخص حضر مجلساً في بيت السيد الصدر في منطقة (الحنانة)

أقيم بمناسبة وفاة الزهراء عليها السلام أن زهاء خمسين شخصاً من أصحاب العمائم الخضر ـ خدام الحضرة العلوية ـ مع شخصين آخرين هما الشيخ حسين الصغير والسيد يوسف الواحدي، أعلنوا بيعتهم للسيد الصدر على المرجعية العليا، وأنهم يريدون أن تكون هناك حوزة عربية، وقد أجابهم السيد الصدر قائلاً: (أشكركم على حسن ظنكم وأسأل الله أن أكون عند حسن ظنكم) ومن هنا بدأت مسيرة المرجعية للسيد محمد الصدر.

الظروف كانت معقدة، يصعب معها التحرك في مثل هذا المسار مع الأخذ بعين الاعتبار سوابق السلطة البعثية في التعامل مع علماء الحوزة، خاصة ما يتصل بشهادة آية الله السيد محمد باقر الصدر واخته بنت الهدى، والتي تجعل اقتحام هذا المضمار أمراً غير محسوب النتائج. وكان أولاد السيد محمد الصدر الثالثة قد اقترنوا ببنات الشهيد محمد باقر الصدر.

وعلى أي حال، فقد كان السيد محمد لصدر يعتقد بأعلميته، ولذلك فور وجدانه للفرصة المناسبة أعلن مرجعيته التي كانت مورد تأييد السلطة العراقية إلى درجة ان السيد بنفسه صرح في لقاء مع مجلة الوسط انه يتلقى دعماً مالياً من الحكومة مقداره ثلاثة ملايين دينار عراقي في الشهر لتدبير شؤون مرجعيته والحوزة العلمية التابعة له. ولما كان السيد الصدر معروفاً ببساطته، كان من المستبعد ان يكون أقدم على هذا الأمر وفق خطة مدروسة يهدف من ورائها إلى مواجهة سياسات الدولة. وعندما حان الوقت وظهر أن الدولة تبغي من وراء دعمه أن تملي عليه بعض الأمور التي تنسق ونهج السلطة، بدأت بوادر الخلاف.

من جهة أخرى، فإن الاقبال الكبير على السيد محمد الصدر أوهمه بأن مرجعيته بلغت شأناً كبيراً. ففي ظل تأييد الدولة لمرجعيته بلغ الأمر احياناً ان الاذاعة الحكومية تعبر عن بالمرجع الديني الأعلى ![۱]

ولكن بمجرد ان لمس البعثيون خطورة في وضع السيد اقدموا على اغتياله ونجليه. في هذه الاثناء لم يكن للمجاهدين العراقيين المتواجدين في الخارج نظرة ايجابية تجاه السيد الصدر وتحركه، وكانوا يعرضون وثائق على تعاونه مع السلطة. وهذا الحكم يسري على كل من مجاهدي حزب الدعوة والمجلس الاعلى. ونفس الموقف تقريباً اتخذ من قبل الجهات المعنية في ايران.

والواقع انه بسبب تأييد الحكومة البعثة لمرجعيته ووجود نقاط غامضة فيما يتعلق بدور مزعوم له في اغتيال بعض مراجع النجف، لم يحظ تحركه باهتمام الحكومة الايرانية. وعلى الرغم من قيامه ـ قبل شهادته بثلاثة اشهر ـ بارسال رسالة إلى الحكومة الايرانية بواسطة السيد جعفر نجل السيد محمد باقر الصدر ومطالبته فيها بفتح مكتب له، إلا ان الجهات المعنية في ايران لم تستجب لهذا لطلب.[۲]

لقد كان السيد محمد الصدر يقسم المراجع والعماء إلى فريقين المرجعية الناطقة والمرجعية الصامتة، ويرى ان هذا التصنيف أساسي جداً ومهم من حيث الأثر والنتيجة.[۳]

(۱) الحائري ۷۲

(۲) الجابري ، العروج الأحمر ۳۸

(۳) انظر : رؤوف ، عادل ، مرجعية الميدان . ۳۲۳ .

ومع اغتيال السيد محمد الصدر ونجليه، تنامت شعبيته بين الاوساط الشعبية في داخل العراق والتي لم يعد لها تصور واضح عن أوضاع المجاهدين في الخارج.

والتحليل العام الذي يتمسك به الكثير من محبّيه انه في الوقت الذي كانت الحركات الإسلامية الثورية قد اعتمدت اسلوب الكفاح المسلح لمواجهة نظام صدام، فان السيد اتبع اسلوب التقية من خلال تعبئة الحشود الشعبية التي لا ترتبط بتلك الحركات، وذلك في محاولة لحفظ الوجود الشيعي.[١]

بعد اغتياله، تحول السيد محمد الصدر إلى رمز وتيار جماهيري، والكثير من الراقيين اعتبروه مرجعاً شهيداً خصوصاً اصحاب الحس العروبي، وهذه فرصة أتيحت بعد سقوط النظام لمؤيدي الصدر لكي يشكلوا لأنفسهم تياراً جماهيرياً عارماً.

في زمان صدام، اغتيل اثنان من المراجع هما آية الغروي وآية الله البروجردي، وحامت الشكوك حول دور للتيار الصدري في ذلك، ولكن المرجح ان ذلك كان جزءاً من المكر البعثي للتخلص من المرجعية الفارسية، وفي الوقت ذاته خلق فتنة في حوزة النجف بين التيارات الموالية للمرجعيات المختلفة.

يقال ان ثمة فارقاً جوهرياً بين المرجعية الإيرانية والمرجعية العربية الصدرية في القدرة على التواصل مع الجماهير. ففيما مضى، كان الارتباط بين المرجعية

---

(١) انظر : لقاء السيد أكرم الحكيم في : الجابري ، ٨٠-٨٥ .

والناس ضعيفاً للغاية، وقلّما نرى مندوباً من الحوزة يذهب إلى المناطق العربية باستثناء بعض الخطباء والوعاظ المحليين. وحتى هؤلاء يشكلون ظاهرة جديدة استحدثت في زمان آية الله الحكيم. واستمر الوضع على المنوال ذاته أيام مرجعية السيد الخوئي، بل انه تقلصت كثيراً نتيجة تدخلات السلطة البعثية في شؤون الحوزة. وما أن وصل الدور في المرجعية إلى السيد محمد الصدر، ومع الدعم والحرية في العمل الذي كان يتمتع به على مستوى العمل المرجعي في العراق، فقد عمل على تقوية صلاته مع الجيل الواعد من الشباب العربي العراقي، وذلك عبر اطلاق مشروع صلاة الجمعة في شتى مدن العراق؛ الأمر الذي ادى فيما بعد سقوط النظام إلى سيطرة الصدريين على منابر صلاة الجمعة.

ان اعمار بعض المدارس التي عطلت من قبل السلطة بسبب تنامي ضغوطها على الحوزة أو هجرة الطلبة الايرانيين والهنود وغيرهم، حوّل هذه المدارس تلقائياً إلى حوزة للسيد محمد الصدر، وقد ظلّت في ايدي الصدريين إلى ما بعد سقوط النظام.

بشهادة السيد محمد الصدر، باتت الأرضية مناسبة لشيوع أفكاره، فالرجل قد استشهد وأعداؤه كثيرون والشباب العربي الشيعي على تواصل ووفاق مع خطه العام مضافاً إلى السمعة الطيبة التي يتمتع بها آل الصدر في الأوساط الشعبية نتيجة تضحياتهم المتواصلة.

لكن جميع هذه الأمور لم تزعزع من مكانة المرجعية الشيعية التقليدية المتمثّلة في شخص آية الله السيد السيستاني، والسر في ذلك ان المبادئ

الأساسية للمرجعية (الأعلمية والتقوى) ما زالت هي المعيار الأول في مقام الاختيار. ناهيك عن الجهود والمساعي التي بذلت من اسرة الخوئي لتمهيد الطريق لمرجعية السيستاني.

مع ذلك كله، فأن من نتائج مرجعية السيد محمد الصدر، تربية جيل جديد من التلاميذ والفضلاء الشيعة العرب الذين ساهموا في تنامي قوة التيار حتى ان البعض منهم سارع إلى اعلان مرجعيته رغم ان عمرهم التحصيلي لم يتجاوز الـ (١٥) عاماً ـ وهي مدة قليلة في اعتبارات الحوزة ـ ومن هؤلاء اليعقوبي[١] والصرخي[٢] اللذين لهما الآن أتباع ومريدون. ونظراً لنفوذ التيار الصدري في الاوساط الشعبية العربية، لقد تمكن من تشكيل احزاب بدأت تنشط الآن.

بنظرة عامة، فان خط السيد محمد الصدر قد انقسم ما بين أتباع اليعقوبي وأتباع السيد مقتدى نجل السيد الصدر. اليعقوبي مثقف جامعي أنهى خدمته العسكرية أيام الحرب العراقية ـ الايرانية في وزارة الدفاع، ثم انخرط في صفوف الحوزة وسرعان ما اصبح مسؤولاً في مكتبه. وبعد شهادة الصدر مالت الشرائح الجامعية نحو اليعقوبي، بينما اتجهت الحشود الشعبية نحو السيد مقتدى ليشكلوا لاحقاً (جيش المهدي).

ينبغي القول بصورة اجمالية ان مرجعية السيد الصدر لم تأخذ مداهنا إلا بعد

---

(١) يطلق عليه أنصاره الآن لقب (آية الله العظمى) ويعدّ المرشد الروحي لحزب الفضيلة الذي يحتل ثلاثة عشر مقعداً في مجلس النواب العراقي. وتفوق شعبيته شعبية الصرخي على نحو لا يحتمل المقارنة.

(٢) يقال ان هذا الرجل الذي يدّعي الاجتهاد والمرجعية تخرج من جامعة بغداد كلية الهندسة المدنية عام ١٩٨٧م.

رحيل آية الله الخوئي عام ١٩٩٢ م حيث ظهرت بوادر تكون مرجعيتين، الأولى لآية الله السيد السيستاني الذي تعدّ مرجعيته امتداداً تقليدياً لمرجعية السيد الخوئي ومنطقة فاعليتها هي العراق والخليج وقسم من ايران وفي كل مكان كان فيه مقلّدون كثر للسيد الخوئي. واغلب هؤلاء من المتدينين التقليديين الذين واكبوا المرجعية منذ عقدين من الزمن. أما في الداخل العراقي فقد شهدت بوصلة التقليد اتجاهات اخرى كان أهمها مرجعية السيد محمد الصدر المدعومة من قبل السلطة، بحث أضحت الكثير من المراكز الحوزوية في النجف تدار بيد السيد الصدر الذي حاول إتباعه دون جدوى فتح مكاتب في إيران.

يقول الحائري بهذا الشأن :

(السيد محمد الصدر كان عربياً، وكان ذلك ذريعة مناسبة لتضعيف أي مرجع آخر. ومهما يكن من امر فان السيد الصدر تصدى للمرجعية... ومساندة الحكومة لمرجعيته وإن كانت بقصد اختراق مؤسسته المرجعية والتأثير على قرارات السيد الصدر، إلا انه في المجموع العام كات هذه الخطوة في مصلحة الحوزة والمدارس، لأن السيد الصدر استثمر المكانة التي حصل عليها في افتتاح الكثير من المدارس... واطلق مشروع صلاة الجمعة، وقام ايضاً بتنصيب قضاة شرع في بعض المحافظات... بالطبع تم تغيير اسماء المدارس التي أُعاد افتتاحها السيد الصدر خاصة ما كان منها يحمل اسماء فارسية)[1].

لكن مقتدى نجل السيد محمد الصدر يعتبر ان ما يشاع من كلام حول علاقة

---

(١) الحائري : ٧٦.

مرجعية والده بالسلطة لا أساس له من الصحة، ولا ينفى ان والده كان له مطلق الحرية في اعمار مدارس النجف واعادة فتحها. واحدى أهم المؤسسات العلمية التي افتتحها الصدر (جامعة الصدر الدينية)، وكان الصدر حريصاً على تغيير اسماء المدارس من اسماء الأشخاص إلى اسماء الائمة.[١]

ايران والعراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة[٢]

على مدى ثماني سنوات من الحرب بين العراق وايران، بذل نظام البعث مساعي كبيرة لانتزاع فتوى من المرجعية في النجف الاشرف تدين ايران، ولكن دون جدوى.

قبل بدء الحرب وبغية ازاحة أي عقبة محتملة في الطريق اقدم نظام صدام على اعدام السيد محمد باقر الصدر واخته وشخصيات من قبيل السيد قاسم شبر العالم المجتهد ذي التسعين عاماً وامام جمعة النعمانية وفي صيف نفس العام ١٩٨٠ م قام باعتقال عشرة آلاف شاب شيعي وأخفاهم إلى يومنا هذا. في غضون ذلك هرب من العراق كل طلاب العلوم الدينية والشباب الرسالي الذي كان له أنشطة سياسية، وهاجروا إلى إيران ليبدأوا أسلوبا آخر في الجهاد ضد السلطة.

لقد اتبع المجاهدون العراقيون أساليب متعددة في الكفاح ضد الطغمة البعثية،

---

(١)لقاء مع مقتدى الصدر في مجلة الحوزة ، ١١٦\١١٦

(٢) هذا البحث اقتبسته من صديقي الفاضل الدكتور محمد جعفري الذي استفدت من مذكراته في أماكن متفرقة من الكتاب .

فقد شكل بعضهم قوات فيلق بدر للقتال في جبهات الحرب، فيما اختار بعض آخر ممارسة فعالياته في إطار تشكيلات سياسية ـ إعلامية مثل حركة المجاهدين العراقيين والمجلس الاعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهناك شريحة من العراقيين المهاجرين انخرطوا في صفوف الحوزة العلمية في قم المقدسة من اجل اكتساب العلوم الدينية ونشرها في صفوف المهاجرين العراقيين وهؤلاء أيضا كان يرتادون جبهات القتال بين حين وآخر لشدّ أزر المجاهدين.

وبوقوع آلاف الجنود والضباط العراقيين أسرى بيد القوات الإيرانية خلال السنة الثانية من الحرب تهيأت لهؤلاء فرصة مناسبة لاتخاذ قرار حر بشأن مصيرهم بعيداً عن قمع السلطة وإرهابها. ومع إقامة دورات تثقيفية في معسكرات الأسر قرر حوالي عشر آلاف أسير عراقي الالتحاق بصفوف قوات بدر فيما اختار نفر منهم الذهاب إلي الحوزة العلمية. وقد اقترن اغلب هؤلاء بزوجات إيرانية أو عراقية وكوّنوا أسرا وعوائل انتشرت في أرجاء إيران.

سنة ١٩٨٢ م تأسس المجلس الاعلى للثورة الإسلامية في العراق بقيادة جمع من العلماء المجاهدين مثل السيد محمود الهاشمي والسيد محمد باقر الحكيم والسيد محمد تقي المدرسي والسيد على الحائري والسيد كاظم الحائرى والشيخ الآصفي ومن تشكيلات حزب الدعوة الإسلامية ومنظمة العمل الإسلامي وحركة المجاهدين وبعض القوى المؤتلفة حول السيد محمد باقر الحكيم. ومن أهم انجازات المجلس الأعلى تشكيل فيلق بدر الذى كان بمثابة الجناح العسكرى للمجلس الذى يضمّ القوى العسكرية المختلفة في تشكيل واحد منظم

ومنسجم، ليكون له فيما بعد دور مهم في العراق.

عام ٢٠٠٢ م خرج حزب الدعوة ومنظمة العمل من خيمة المجلس الأعلى وبقي فيه فقط الأشخاص والكيانات الصغيرة التي تؤمن بزعامة السيد الحكيم. وقد عاد المجلس بعد سقوط النظام إلي العراق بمعية فيلق بدر كأكبر قوة سياسية ـ عسكرية شيعية تعمل بإمرة السيد محمد باقر الحكيم.

أما حزب الدعوة ومنظمة العمل، فقد ظلا محافظين على أسلوب عملهما الحزبي حتى وهما تشكيلان ضمن تشكيلات المجلس الأعلى على النحو الذي يستفيدان فيه من مزايا المجلس ومزايا الحفاظ على الهوية الخاصة بكل منهما.

وخلال ٢٣ سنة قضاها العراقيون الشيعة في إيران، تمكن زهاء خمسة آلاف طالب عراقي من الدراسة في الحوزة العلمية بقم المقدسة، فيما تلقى حوالى عشرين ألف عراقي تدريبات عسكرية في فيلق بدر ومستفيدين من تجربة الحرب العراقية ـ الإيرانية ومن الدورات التي ينظمها الحرب الحرس الثوري، بالإضافة إلي تأهيل كوادر سياسية وإعلامية وثقافية في صفوف الأحزاب والحركات.

ولقد استطاع هؤلاء الانتشار بسرعة في المحافظات والمدن والقصبات العراقية الآهلة بالسكان الشيعة والذين حرموا لسنوات طوال من رؤية رجل الدين و ونشطت المساجد والحسينيات والمراكز الدينية والثقافية والمكتبات، وعملت هذه المراكز جميعاً على نشر الثقافة الدينية وتعميقها، على النحو الذي أعاد للنجف اشراقتها بعد غياب طويل.

وعلى المستوى العسكري، ومن خلال توغّله فـي المجتمـع العراقـي تمكـن فيلق بدر من توسيع قاعدته الشعبية إلى أكثر من عشرة آلاف مقاتل تولّوا مهمـة مواجهة الحملات الإرهابية التي تستهدف الشيعة في وسط وجنوب العـراق ولـم تثن عزيمة هذا الفيلق وأبنائه الممارسات التعسفية التـي أقـدمت عليهـا القـوات الأمريكية ضد كوادر الفيلق والتي بلغت حد الاعتقال والضرب والتنكيل. بـل إن البعض منهم انخرط في صفوف الشرطة والجيش العراقي الجديد. لقد اسـتطاعت الأحزاب العراقية العائدة من إيران إعادة ترتيب أوضـاع العـراق الجديـد بـدعم معنوي من المرجعية في النجف وإسناد لوجستي من قبـل إيـران، وذلـك علـى الرغم من العقبات والعراقيل التي نجمت عن احتلال العراق. والشاهد على ذلـك اجراء الانتخابات والاستفتاء على الدستور وتشكيل الحكومة والمجلس وتأهيل الجيش والشرطة.[١]

عراق ما بعد صدام والمرجعية الشيعية

ان الظلم والممارسات اللا إنسانية التي طبعت سياسة البعث على مدى عقود ضد الشيعة والكرد وشرائح من العرب السنة، خلقت لأبناء الشعب العراقي وضعاً بحيث باتوا مستعدين للقيام بأي عمـل للإطاحـة بنظـام صـدام. دون أن يـأبهوا بعواقب ذلك. لقد أصبح همهم الأسـاس بعـد خمـس وثلاثـين سـنة مـن الظلـم والجـور والـتـعـسـف هو إزاحة هذا الديكتاتور وحزبـه البغـيض عـن الحكـم

(١) إلى هنا ينتهي الاقتباس .

مهما كلف الأمر.

في هذا السياق لم يكن للمرجعية الشيعية أي دخل، فالسيد السيستاني يعيش في داخل العراق ويخضع لرقابة مشددة وليس له أي نوع من الاتصال بالخارج، على أنه كان يتفادى الإقدام على أي عمل من شأنه مضاعفة الضغوط البعثية على الحوزة العلمية، ومن هنا فقد حرص على لزوم بيته لسنوات طوال، وبذلك ساهم في حفظ الحوزة العلمية في النجف من نقمة النظام.[١]

أما خارج العراق فقد سلكت الأحزاب والتنظيمات المعارضة للنظام من الشيعة والأكراد والسنة طريقاً آخر.

إن مجيء أمريكا إلى المنطقة مردّه إلى دواع عديدة ؛ منها مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومنها كبح جماح الإرهاب حيث يعتقدون ـ أو هكذا يدّعون ـ ان الحكومة العراقية على صلة بتنظيم القاعدة، والداعي الثالث تأثير بعض المعارضين العراقيين أمثال احمد الجلبي على القرار الأمريكي وإقناعهم بدخول العراق، مضافاً إلى السبب المعلن وهو البحث عن أسلحة دمار شامل استخفافاً بعقول الشعوب.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالعراقيين، فان المعارضة العلمانية العراقية والبعثيين السابقين والأحزاب الكردية والشيعية والعربية السنية، كانت لهم اجتماعات متواصلة للتخطيط للإطاحة بنظام صدام، وقد استثمروا الفرصة السانحة هذه في تحقيق حلمهم بالقضاء على نظام تسبّب في قتل وإبادة ملايين العراقيين في

---

(١) السيستاني ، النصوص الصادرة : ٩٤ .

غضون ثلاثة عقود.

ولقد نجح هؤلاء في إقناع أمريكا بأن الإطاحة بصدام أمر سهل وان الشعب العراقي سيرحّب بهذه الخطوة ؛ الأمر الذي صدّقته الوقائع خلال الأشهر الأولى من سقوط النظام في (٢٠٠٣\٤\٩). ولكن مع مرور الوقت، وبسبب الحماقات الأمريكية في حل المشاكل العالقة وتلكؤها في نقل السيادة إلى العراقيين وانتقال الإرهابيين إلى العراق من مختلف البلدان العربية (السنية) وباكستان والتآمر بين الدول العربية ممثلة بالسعودية واليمن والأردن والإمارات ضد العراق، كل هذه الأمور أسهمت في تأزيم الأوضاع في هذا البلد يوماً بعد يوم، ولا ننسى أيضا إن المرجعية الشيعية لم تتدخل إلى الآن في ما يحصل في العراق، رغم ان الشيعة لم يخفوا سرورهم للإطاحة بالنظام.

ومن حين تشكيل مجلس الحكم، ونظراً لكون الشيعة أغلبية مطلقة بحسب كل الإحصائيات والأرقام فقد أصبح لهم وزن مؤثر في هذا المجلس. عندها راح السيد السيستاني يتدخل في بعض القضايا الراهنة، وذلك في ضوء ما يبدو له من ملاحظات محددة ومتواصلة بشأن قضايا هامة تطرح في مجلس الحكم من قبيل الانتخابات وكتابة الدستور والاستفتاء عليه وتشكيل الجمعية الوطنية وانتخاب رئيس الحكومة وأيضا طريقة التعامل مع الاحتلال. وقد ارتكزت رؤى السيد السيستاني على المبادئ التالية

المبدأ الأول : إيمانه العميق بدور الشعب في تقرير مصير البلد في إطار عراق متحد. وكان أبرز تجلّي لهذا المبدأ في كتابة الدستور، حيث نعلم جميعاً إن

الأمريكان أرادوا اختيار جماعة لكتابة مسودة الدستور العراقي الدائم، أو أن يقوم بها نفس أعضاء مجلس الحكم الذي سبقت الإشارة إليه ومن أجل تمرير هذا المشروع جاءوا بالأخضر الإبراهيمي ممثلاً عن الأمم المتحدة في العراق والتقى السيد السيستاني. وكان جلّ تركيزهم على قضية مفادها إن الظروف غير ملائمة في الوقت الراهن لتنظيم انتخابات. ولكن السيد السيستاني رفض هذا الأمر بشدة، وأعلن بصراحة إن ممثلي الشعب العراقي هم فقط المخوّلون بوضع دستوره الدائم، ولا مشروعية لقيام مجلس الحكم بهذا الأمر المصيري.[١] وقد أجاب على سؤال بهذا الصدد بما نصّه :

(إن تلك السلطات لا تتمتع بأية صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور)، مشيراً إلى عدم وجود ضمانات بقدرة هؤلاء على وضع دستور دائم منبثق عن الهوية الوطنية والدينية والأعراف والقيم الاجتماعية لهذا الشعب. وبالتالي فان فكرة تعيين جماعة من قبل الأمريكان لوضع مسودة الدستور غير مقبولة من الأساس والحل الممكن الوحيد هو إجراء انتخابات عامة ينبثق عنها مجلس وطني يتولى مهمة كتابة الدستور.[٢]

لم يستجب الأمريكان لهذا الطلب في البداية، لكن إصرار السيد السيستاني على هذه القضية وتأكيده على عدم القبول بحلول بديلة ،[٣] حملهم على الإذعان للأمر الواقع، ما ترك تأثيراً ملموساً على مواد الدستور الدائم.

---

(١) السيستاني : ٤٩

(٢) السيستاني : ٣١-٣٢

(٣) السيستاني : ٣٦ .

المبدأ الثاني : وهو يرتبط بدوره كمرجع فى القضايا الراهنة فى العراق. ويعتقد السيد السيستانى بأن المرجعية لا ينبغى لها التدخل فى الأمور التنفيذية والقضايا الجزئية، وجواباً على سؤال بهذا المجال قال : (المرجعية لا تمارس دوراً في السلطة والحكم). [١]

ولم يكن هذا الأمر ممكناً فى العراق، بغض النظر عن رأيه بهذا الموضوع. ولهذا نجده يبدى رأيه في بعض المسائل ويجيب على بعض الاستفتاءات ذات الطابع السياسى نظير إجابته على سؤال بشأن رغبته فى إيجاد دولة مماثلة لإيران ونظامها الإسلامي في العراق، حيث أجاب كلا، ولكن نريد دولة تحترم أصل الدين الإسلامى وأحكامه الأساسية باعتباره دين الأكثرية الساحقة من المجتمع العراقى. [٢] وقد أوصى رجال الدين والطلاب بعدم زجّ أنفسهم فى المجالات التنفيذية والإدارية، وليكتفوا بمهامّ التوجيه والإرشاد والإشراف على عمل المؤسسات التى تُعنى بإدارة شؤون المدن وحفظ الأمن وتوفير الخدمات العامة. [٣]

وقد حرص اكبر الحرص على عدم الاستفادة من نفوذه العام إلا بمقدار الضرورة وفى القضايا ذات الطابع المصيرى حتى أنه تفادى كثيراً إبداء رأيه فى اختيار الرجل الأكثر صلاحية لتولى منصب رئاسة الوزراء، تاركاً مثل هذه الأمور إلى صلاحية نواب الشعب وممثليه.

---

(١) السيستانى : ١٨

(٢) السيستانى : ٤٣

(٣) السيستانى : ١٢-١٤ .

وبالطبع، كان الشيء الأكثر أهمية وخطورة هو مسودة الدستور وكان يؤكد في هذا السياق على حق الشعب فى تقرير مصيره، وان يأخذ كل مكون من مكونات الشعب العراقى حقه الطبيعي دون تمييز حسب المذهب أو العرق. وكانت آراء السيد السيستاني ووجهات نظره تجد طريقها إلى لجان كتابة الدستور. إن موقف السيستاني هذا دالّ على قناعته بان مهمة المرجع الديني الأعلى والذى يسمو بموقعه عن الاعتبارات الوطنية والقومية والفئوية، تفرض عليه التدخل في الخطوط العامة للنظام السياسى الحاكم فى مجتمع يشكل المسلمون أغلبية ساحقة من أبنائه. ومن الطريف ان نعلم ان السيد السيستاني ورغم إقامته في العراق لأكثر من أربعين عاماً لم يتخلّ عن جنسيته الإيرانية وقد سافر إلى لندن بجواز سفر إيراني.

المبدأ الثالث : هو قناعة السيد السيستاني بالنظام العالمى فى إطار هيئة الأمم المتحدة كمرجع فى معالجة القضايا الخارجية، وبالديمقراطية كمرجع لمعالجة القضايا الداخلية عبر الانتخابات ومشاركة الشعب فى تقرير المصير وانهاء الاحتلال الأجنبى، ولهذا عارض أى تحرك عسكرى أو أسلوب إرهابى أو ميليشياوى لتحقيق الأهداف، وعمل جاهداً على تشكيل حكومة وطنية ومجلس نيابى مؤثر ممهداً بذلك الأرضية المناسبة لخروج القوات الأجنبية من العراق.

ومن الطبيعى ان يكون نفوذ السيد السيستانى مقتصراً على الوسط الشيعي فى العراق الذى يشكل نسبة ٦٤٪ من مجموع السكان، مضافاً إلى أن الشيعة عانوا

من الاضطهاد الشديد على مدى عقود وقدموا مئات الآلاف من الشهداء. وكان من الواضح إن ممارسة السيد لدوره القيادي على قاعدة إعطاء كل ذي حق حقه كفيل بتفوق الشيعة بحكم نتائج ومعطيات العملية الديمقراطية. وهذا هو مقتضى الحق الطبيعي الذي وجد الآخرون أنه لن يخدم مصالحهم، ولهذا فتحوا الباب على مصراعيه من أجل تحويل العراق إلى حاضنة لقوى الإرهاب وإغراقه في مستنقع من الدماء، مقابل ذلك استمر السيد السيستاني من خلال بياناته بالتعويل على الشعب العراقي ككل متفادياً الحديث بلغة السنة والشيعة تجنباً لإثارة المشاعر المذهبية، وخشية انجرار البلد إلى أتون فتنة طائفية. ومنذ الأيام الأولى صرح بحقيقة ما يتطلع إليه من خلق ظروف مناسبة لانبثاق حكومة من نفس الشعب تمثل جميع طوائفه وأطيافه.[1]

وحين سأله احد مراسلي رويتر عن هوية الدولة التي يتطلع السيستاني إلى إيجادها : هل هي قومية أم إسلامية ؟

أجاب (إن شكل الحكومة الجديدة للعراق يعيّنها الشعب العراقي بجميع قومياته ومذاهبه وعبر الانتخابات الحرة).[2]

ولهذا تمنّى على الحكومة المستقبلية للعراق ان تداري وضع الأكثرية وان تحترم دين الغالبية المطلقة من ابناء الشعب ولا تصادق على قوانين مخالفة له.[3]

وفيما يرتبط بالشيعة والسنة كان يدعو إلى التفاهم والتوافق بين الاثنين

---

(١) السيستاني ١٨

(٢) السيستاني : ٢٦

(٣) السيستاني : ٢٨ .

لحفظ المصالح العامة، وصرح قائلاً بهذا الشأن : (هناك ارتباط قائم مع إخواننا من أهل السنة من خلال اللقاءات المباشرة وغير المباشرة، وثمة تقارب في وجهات النظر تجاه القضايا المشتركة، وان الحوار هو السبيل الأوحد لحلّ الاختلافات).[١]

وحينما بلغت الخلافات الطائفية أوجها بعد نفوذ الوهابية وأتباع القاعدة إلى العراق وتحالفهم مع فلول البعثيين والذى أسفر عن اقتراف جريمة تفجير مرقدى الإمامين العسكريين عليهما السلام، ورغم كل الضغوط الشعبية باتجاه تأجيج الموقف والقيام بردّ فعل عنيف، بقي السيد السيستاني ملتزماً بمبادئ الحوار والتفاهم وإيجاد عراق واحد ومستقل.

وحتى فيما يرتبط بالفيدرالية لم يكن يوافق عليها من وجهة نظره الشخصي، لكنه أعلن انه لن يعترض عليها إذا اختارها الشعب العراقى عبر آلية ديمقراطية. تلك قضية لطالما أكد عليها آية الله السيستانى فى أحاديثه ولقاءاته وبياناته.

وطوال هذه المدة أكد على وجوب المحافظة على وحدة العراق أرضاً وشعباً وان على السنة والشيعة العمل معاً من اجل الحفاظ على وحدتهم والدفاع عن ثوابتهم الدينية والوطنية.[٢]

وحين تمادى الإرهابيون فى أعمالهم الإجرامية وارتكبوا عمليات إبادة جماعية واستباحوا الدماء والأعراض، اتخذ موقفاً حازماً بوجههم، لكنه فى

(١) السيستاني ٥٢.
(٢) السيستاني : ٨٣.

الوقت نفسه ظلّ مصراً على ضرورة ان يكون الحل قانونياً وذلك من خلال تقوية الحكومة واجهزتها الأمنية والعسكرية لا عن طريق الميليشيات والجماعات المسلحة.[1]

وكان يذكّر دائماً بمسؤولية قوات الاحتلال عن انهيار الوضع الأمني في العراق معتبراً إن الحلّ الأمثل يكمن في قوة الحكومة واستلامها الملف الأمني، كما اتخذ مواقف صريحة ضد التصرفات والتصريحات اللامسؤولة التي صدرت عن البعض نظير تصريحات حسني مبارك التي حذر فيها من خطر شيعي مزعوم.[2]

المبدأ الرابع : ويختص بموقفه من الاحتلال، فلقد بيّن مكتب السيد السيستاني ان قوات التحالف ـ وحسب قرار مجلس الأمن ـ تعدّ قوة محتلة.[3]

وعندما سأله احد المراسلين عن رأيه بتصريح بول بريمر بأن القوات الأمريكية باقية في العراق حتى بعد تشكيل الحكومة، أجاب السيد السيستاني كيف يتوقعون منا أن نؤيد بقاء قوات الاحتلال ؟!.[4]

الشيء المهم هو أن المرجعية الشيعية ورغم حضورها الفاعل في القضايا الراهنة في العراق، إلا إنها تجنّبت أي ارتباط مباشر مع الأمريكان وحلفائهم، وأعلنت بصراحة أنها تعارض وجودهم في العراق، وذلك في جواب على سؤال

---

(۱) السيستاني : ۱٤۲

(۲) السيستاني : ۱٤۷

(۳) السيستاني : ٤۱

(٤) السيستاني : ٥۰ .

وجهته نيويورك تايمز بهذا الشأن.[١]

لقد وافق السيد السيستاني على لقاء مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق سرجيو دي ميللو الذي قتل في عمل إرهابي، وبعث السيّد رسالة تعزية بهذا الصدد إلى الأمين العام للأمم المتحدة.[٢]

لكن بالمقابل أحجم عن اجراء أي لقاء أو اتصال مع الحاكم الأمريكي في العراق بريمر على طول مدة مكوث الأخير في العراق. ما عدا تسلم السيد السيستاني لرسالة جاء بها مندوب عن بريمر من دون ان يسمح له باللقاء شخصياً. ولكن بريمر كتب لاحقاً في مذكراته ان المرجعية الشيعية وبضمنها السيد السيستاني كانت تحثّ أتباعها على التعاون مع قوات التحالف، إلا ان منتدى الفكر العراقي كذّب هذه الادعاءات، مؤكداً انه بقدر ما يتعلق الأمر بأية الله السيستاني فإنه لم يرفع أي توصية التعاون مع قوات التحالف، وان مشكلة بريمر تكمن في أنه لم يلتق بالمرجعية يوماً، ولهذا فهو يعتمد على السماع من هنا وهناك.[٣]

وفي موضع آخر من مذكراته، برر بريمر عدم لقائه شخصياً بالسيد السيستاني بأن مثل هذا الأمر لا يبدو مناسباً ومقبولاً بين أوساط المؤمنين. إلا إن بيان منتدى الفكر العراقي عزا هذا الأمر إلى موقف مبدئي من قبل آية الله السيستاني الذي كان يرفض اللقاء بقيادات قوات التحالف، كونها قوات محتلة لا يجوز

---

(١) السيستاني : ١٧

(٢) السيستاني ٥٤ .

(٣) انظر : تعليقات منتدى الفكر العراقي على مزاعم بريمر فيما يتعلق بآية الله السيستاني ، السيستاني ٤٢٦ .

التعامل معها إلا أن اقتضت الضرورة ذلک.[١]

لقد أورد بريمر في مواضع عديدة من كتابه، نقاط اختلاف متعددة بين الرؤى الامريكية ورؤى آية الله السيد السيستاني، وهي نقطة جديرة بالاهتمام.[٢]

هذا، وقد كذب بيان منتدى الفكر العراقي جميع مزاعم بريمر بشأن وجود مراسلات بينه وبين آية الله السيستاني، متحدين بريمر أن يعرض دليلاً ملموساً على ذلک، ومنوهين بأن أبواب مكتب آية الله السيستاني ظلت مفتوحة دائماً بوجه مختلف الشخصيات التي يمكن ان يكون لها دور مؤثر في حلّ المشكلة العراقية باستثناء قادة التحالف طبعاً.[٣]

الأهم من ذلک، أنه على مدى الأعوام الماضية بعث الرئيس الأمريكي بوش برسالتين إلى آية الله السيستاني لكنه لم يجب على أيّ منهما. وذات مرة أبلغ احد المسؤولين العراقيين تحية من السيستاني إلى بوش، لكن مكتب السيد السيستاني نشر تكذيباً لهذا المدعي. وحين ذهب السيد إلى لندن لغرض العلاج بعث رئيس الوزراء البريطاني توني بلير برسالة اليه، إلا ان هذه الرسالة ظلّت كسابقاتها بدون جواب، واستناداً إلى ما ذكر، لا ينبغي الشک في أن المرجعية الشيعية أعرضت عن الاتصال بزعامات التحالف بأي نحو من انحاء الاتصال،

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢١-٤٢٢ ، وفي هامش هذا الكلام ، جرى تكذيب ما ذكره كينغ في الواشنطن بوست من أن السيد السيستاني لا يلتقي بغير المسلمين، وأن عدم لقائه ببريمر وسائر مسؤولي التحالف يأتي في هذا السياق ، والدليل على كذب هذا الادعاء إن السيد سبق وأن التقى بمبعوث الأمم المتحدة إلى بغداد سيرجيو دي ميللو وغيره من مسؤولي الأمم المتحدة وهم من غير المسلمين في الغالب .

(٢) نفس المصدر ٤٢٣-٤٢٤ .

(٣) السيستاني : ٤٢٥ .

ولكنها في الوقت ذاته لم تؤمن باللجوء إلى القوة في التعامل مع الحلفاء.

وحينما انتهجت بعض التيارات منهج الكفاح المسلح ضد الأمريكان لم تحظ بتأييد ومباركة السيد السيستاني. واثناء أحداث النجف، حث كانت هناك خشية من هجوم الأمريكان على الصدريين ومحاصرتهم عسكريا بغية القضاء عليهم أو توجيه ضربة موجعة، كان مفتاح الحل لهذه المشكلة المعقدة بيد آية الله السيستاني الذي قطع سفرته للعلاج في لندن وعاد إلى النجف وتدخل لحلّ الأزمة بشكل مشرف. إن المسار الذي ارتأته المرجعية الشيعية في النجف حيال مشكلة الاحتلال، هو العمل على إيجاد عراق مستقل دستوري وتهيئة الأجواء لخروج القوات الأجنبية بشكل طبيعي، وعندما استفتي السيد السيستاني بشأن الدعوات التي انطلقت من بعض منابر الجمعة داعية إلى مقاومة المحتلين، بيّن وجهة نظره القائمة على خيار المقاومة السلمية لأجل التسريع بعملية استرجاع السيادة وتهيئة الأوضاع لانسحاب هادئ للقوات الأجنبية.[1]

في غضون السنتين الأوليين بعد سقوط النظام حيث الأوضاع أكثر هدوءاً، كان السيد السيستاني ـ بالإضافة إلى كونه مرجعاً أعلى للشيعة ـ يلعب دور الشخصية البارزة في العراق التي هي محط احترام واهتمام الجميع. وقد التقى به البارزاني والباججي والكثير من رموز العراق الجديد لأجل التشاور والتفاهم معه في القضايا ذات الطابع المصيري.

ولكن على مستوى حوزة النجف كان هناك ثلاثة مراجع تقليد آخرون، وهم

---

(١) السيستاني : ٢٥ .

: آية الله السيد محمد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ محمد إسحاق الفياض وآية الله الشيخ بشير النجفي. وعلى طول المدة كان المرجع المطلق والمطاع هو آية الله السيستاني، وكان المراجع الآخرون يرجعون إليه في مهمات المسائل، ولم يظهر أي مؤشر على وجود خلاف بين هؤلاء. حتى السيد كاظم الحائري كان يرجع إليه في القضايا المصيرية، وهذا الأمر من مقتضيات الأدب المرجعي المعمول به في النجف، مضافاً إلى إيمان هؤلاء بخبرة وحكمة السيد السيستاني ودرايته.

يذكر أن الحقبة الصدامية شهدت من الظلم والتنكيل بحق الحوزة وأبنائها ما أدى إلى تفريغها من طاقاتها ورموزها ما عدا ثلة قليلة حسب ما ورد في كتابات آية الله السيستاني.[1]

ولكن الهدوء النسبي في أوضاع النجف للفترة ما بعد سقوط صدام مباشرة وعودة الكثير من رجال الدين المهاجرين من سوريا وإيران، هيّأ الأرضية لوثبة جديدة للحوزة كان مقدراً أن تعيد مكانتها الريادية للشيعة في العالم لولا الاضطرابات التي شهدها العراق لاحقاً وانسحبت على النجف نفسها فتأثرت بها كثيرا حركة الازدهار العلمي والثقافي.

من جهتها، أوصت قيادة الجمهورية الإسلامية ومراجع التقليد في إيران أكثر من مرة، بإتباع توجيهات آية الله السيستاني بشأن الأوضاع في العراق، وكانت آراؤه ومواقفه موضع تقدير وتأييد الجهات المعنية في إيران سواء على مستوى

---

(١) السيستاني : ٩٢ .

القيادة أو على مستوى الحكومة التي لم تألُ جهداً في التنسيق مع المرجعية العليا في النجف في جميع القضايا ذات الاهتمام المشترك. ولدى توجه السيد السيستاني إلى لندن لغرض العلاج، نشرت بعض الصحف الإيرانية تحليلات غير مسؤولة، سرعان ما تم احتواؤها والتراجع عنها. هذا في حال أن المناخ العام في إيران حانق على الوضع في العراق، ولولا الثقة المطلقة بمرجعية آية الله السيستاني وتوصيات قائد الثورة الإسلامية لكان من الصعب تقبل موقف المرجعية تجاه ما يجري هناك.

لقد مرّت ثلاث سنوات حتى الآن، والعراق تحول فيها إلى حمامات دم لا يراد لها أن تجف، وكل ذلك نتيجة السياسات الهوجاء للأمريكان والتدخل الشامل من قبل الدول العربية في شؤون العراق، والهدف من كل ذلك إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سقوط نظام صدام من هيمنة الأقلية والتي لم تنتج إلا عقودا من القهر والعذاب والقمع ضد الشيعة والأكراد. إن استمرار هذه الفتن وتعميقها أسهم في خلط الأوراق على نحو لم يعد بمقدور أي كان السيطرة على مسارات الأحداث، وتحول العراق إلى ساحة لتصفية الحسابات نتيجة تدخل الأجنبي وتآمر كل من لا يريد لشعب العراق أن يختار نمط حياته كما يريد وعبر الآليات الديمقراطية المقبولة.

لقد أصدر آية الله السيستاني مؤخراً بياناً بشأن النزاعات الطائفية في العراق طالب فيه جميع الأحزاب والتجمعات والعشائر بوضع حدّ لنزيف الدماء وإدراك خطورة الأوضاع التي يعيشها البلد.

ويرى آية الله السيستاني ان السبيل الأوحد لحل هذه الأزمة هو الكفّ عن المعارك الطائفية ومراعاة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين العراقيين في تقرير مصير بلدهم.[١] وهو يعتقد إن النزاعات الجارية الآن لا تعبر عن صراع مذهبي بين السنة والشيعة، بل هو شقاق سياسي تغذّيه الجماعات التكفيرية التي لها أهدافها الخاصة.[٢]

صفوة القول إن آية الله السيستاني بمنهجه العقلاني في التعاطي مع الوقائع ومراقبته للأحداث عن كثب سعياً للتأثير عليها من الصميم، لم يتوقف عند دور المرجع الأعلى للشيعة، بل تعدّاه إلى رمز مؤثر في عالم السياسة الدولية. إن المعطيات التي أفرزتها هذه القيادة على صعيد الوسط الشيعي الداخلي وعلى صعيد علاقة هذا الوسط بمحيطه الخارجي، كانت كبيرة وكثيرة، إلى درجة يمكن استثمارها بشكل أفضل ؛ الأمر الذي لم يتحقق. والمشكلة في ذلك لا تتعلق بالمرجعية، بقدر ما تتعلق بالوسط الشيعي نفسه وبقياداته التي ينبغي لها العمل على تهيئة الظروف أفضل لاستثمار هذه المعطيات، لكي يتسنى للشيعة الخروج من عنق الزجاجة (واقع الأقلية) إلى فضاء رحب يتيح لهم دور اكبر على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي.

---

(١) السيستاني : ١٥٤-١٥٥ (رسالة للشعب العراقي حول الفتنة الطائفية) .

(٢) السيستاني . ١٦٢ .

مصادر الكتاب

١ ـ آقا بزرک الطهراني، الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة، تعليقات السيد عبد العزيز الطباطبائي، مشهد، دار المرتضى، ١٤٠٤ هـ.
٢ ـ آل محبوبة، شيخ باقر، ماضي النجف وحاضرها، بغداد، مطبعة الآداب، ١٩٥٨.
٣ ـ آية الله العظمى السيد محمد رضا الكبايكانى به روايت اسناد ساواک، طهران، (فارسي).
٤ ـ احمدي، علي، اخراج ايرانيان از عراق، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامي، ١٣٨٥، (فارسي).
٥ ـ الفت، محمد باقر، كنج زرى بود در اين خاكدان، اصفهان، ١٣٨٤ ش، (فارسي).
٦ ـ بطاطو، حنا، ال، طهران، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، ١٩٩٠.
٧ ـ البياتي، حامد، مقالة (المرجعية الدينية ودورها القيادي، السيد محسن الحكيم نموذجاً)، دار كتاب النجف الاشرف، اسهامات في الحضارة الإسلامية ج ١، لندن، ٢٠٠٠.
٨ ـ الجابري، سيد علي، عروج سرخ، نظرى كذار بر زندكى ومبارزات شهيد سيد محمد صدر، قم، ١٣٨٢، (فارسي).
٩ ـ الجبوري، كامل سلمان، السيد محمد كاظم اليزدي، قم، مكتبة ذوي القربى، ٢٠٠٦.

١٠ ـ الجبوري، كامل سلمان، شيخ الشريعة، قيادته في الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ ووثائقه السياسية، ٢٠٠٥.
١١ ـ الحائري، عبد الهادي، تشيع ومشروطيت ونقش ايرانيان مقيم عراق، ١٣٦٤ ش. (فارسي).
١٢ ـ الحائري، سيد علي اكبر، مصاحبة با عنوان (حوزة نجف، تلاش ها ومظلوميت ها) مجلة حوزة، سال ۴، ش ١٦، صص ٦٣ ـ ٨٠. (فارسي).
١٣ ـ الحيدري، ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الحيدري البغدادي (م١٨٨٢)، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، لندن، دار الحكمة، ١٩٩٨
١۴ ـ خاتم يزدي، خاطرات آيت الله، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامي، ١٣٨١. (فارسي).
١٥ ـ الخرسان، صلاح، حزب الدعوة الإسلامية حقائق ووثائق، دمشق، ١٩٩٩.
١٦ ـ الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، بغداد، ١٩٦٣ م.
١٧ ـ درينكل، سليم، با عنوان (مبارزة با تشيع در عراق در دوران عبد الحميد دوم) ترجمة نصر الله صالحي، مجلة نامه، قم، شماره ٢، تابستان ١٣٨۴ ش. (فارسي).
١٨ ـ رؤوف، عادل، مرجعية الميدان، قم، ٢٠٠١.
١٩ ـ الساعدي، حمود، دراسات عن عشائر العراق، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٨٨.
٢٠ ـ سمامي، شيخ محمد، خاطرات، طهران، مركز أسناد انقلاب اسلامي، ١٣٨٥ (فارسي).
٢١ ـ سمامي، شيخ محمد، بيست سال تاريخ حوزة علمية نجف، قم، ١٣٧٧. (فارسي).
٢٢ ـ سيلدت، موسى، تاريخ جغرافيايي عرب خوزستان، طهران، ١٣٧۴. (فارسي).
٢٣ ـ السيستاني، آية الله العظمى، النصوص الصادرة، اعداد حامد الخفاف،

بيروت، دار المؤرخ العرابي، ٢٠٠٧
٢٤ ـ شبر، جسن، حزب الدعوة الإسلامية، ١٩٥٧ ـ ١٩٨٠، قم، مكتبة الامام الصادق عليه السلام، ١٤٢٧.
٢٥ ـ الشمراني، محمد علي، صراع الاضداد، لندن، دار الحكمة، ٢٠٠٣ م.
٢٦ ـ علم وجهاد، حياة آية الله العظمى محمد هادى الميلاني، قم ١٤٢٧ هـ.
٢٧ ـ العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية فى العراق ١٩١٤ ـ ١٩٩٠، لندن ١٩٩٠.
٢٨ ـ فاضل، البراك، المدارس اليهودية والايرانية في العراق، بغداد ١٩٨٤
٢٩ ـ فب مار، تاريخ نوين عراق، ترجمة محمد عباسبور، مشهد، ١٣٨٠. (فارسى).
٣٠ ـ فياض الحسيني، هاشم، لمحات من حياة الامام المجدد السيد الخوئي، بيروت، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠.
٣١ ـ الكاظمي، محمد صالح، احسن الأثر فيمن أدركناه فى القرن الرابع عشر، بغداد، مكتبة النجاح، ١٩٤٣.
٣٢ ـ كوهستانى، مسعود، جالشها وتعاملات ايران وعراق در نيمه نخست قرن بيستم، (بر اساس اسناد وزارت خارجه) طهران، وزارت خارجه، ١٣٨٤ (فارسى).
٣٣ ـ مددي، سيد احمد، مصاحبه، مجلة حوزة، سال ۴، شماره ١۶، صص ٣٩ ـ ۶٢. (فارسى).
٣۴ ـ منظور الاجداد، سيد حسين، مرجعيت در عرصه اجتماع وسياست، طهران، شيرازه، ١٣٧٩. (فارسى).
٣٥ ـ النقاش، اسحاق، شيعة العراق، ترجمة عبد الاله النعيمي، بيروت وسورية، ١٩٩۶ م.
٣۶ ـ الوردى، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٣، بغداد، ١٩٧٢.